

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سورة يونس

لفضيلة

الرَّكُوزُ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ

عمية كلية الدراسات الإسلامية والعربية
جامعة الأزهر

(الجزء الحادى عشر)

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

(الطبعة الثانية)

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

تمهيد بين يدي السورة

١ - سورة يونس - عليه السلام - هي السورة العاشرة في ترتيب المصحف ؛ فقد سبقتها سور : الفاتحة ، والبقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال ، والتوبة .

٢ - وكان نزولها بعد سورة الإسراء .

٣ - وعدد آياتها : تسع ومائة آية عند الجمهور . وفي المصحف الشامي مائة وعشر آيات .

٤ - وسميت بهذا الاسم ؛ تمكريماً ليونس - عليه السلام - ولقومه الذين آمنوا به واتبعوه قبل أن ينزل بهم العذاب ، وفي ذلك تقول السورة السكرية : « فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين » (١) .

٥ - وسورة يونس من السور المكية ، وعلى هذا سار المحققون من العلماء .

وقيل إنها مكية سوى الآية الأربعين منها وهي قوله - تعالى - « ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين » والآيتين الرابعة والستين ، والخامسة والستين وهما قوله - تعالى - « فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك ، فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك . لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين . ولا تمكرون من الذين كذبوا بآيات الله فتكونن من الخاسرين » .

قال صاحب المنار : وقال السيوطي في الأتقان : استثنى منها الآيات ٤ ،

وقوله -- سبحانه -- في سورة الانبياء : فاسألوا اهل الذ كر إن كنتم
لا تعلمون ، (٢) .

والذى تطمئن لآليه النفس ، أن سورة يونس جميعها مكينة ، كما قال المحققون
من العلماء ، لأن الذين قالوا بوجود آية أو آيات مدنية فيها لم يأتوا برواية صحيحة
تصلح مستنداً لهم ، ولأن السورة الكريمة من مطلقها إلى نهايتها تشهد فيها
سمات القرآن الحكيم واضحة جليلة ، فهم تهتم بإثبات وحدانية الله ، وإثبات
صدق النبى - صلى الله عليه وسلم - وإثبات أن هذا القرآن من عند الله ،
وأن البعث حق ، وأن ما أورده المشركون من شبهات حول الدعوة
الإسلامية ، قد تواترت السورة الكريمة دحضه بأسلوب منطقي رهين . . .

(١) الآية ١٠١

(٢) د ٧ تفسير المنار ج ١١ ص ١٤١ الطبعة الرابعة - مكتبة القاهرة .

والذى يطالع هذه السورة الكريمة بتدبر وخشوع ، يراها فى مطالعها تتحدث عن سمو القرآن الكريم فى هدايته وإحكامه ، وعن موقف المشر كين من النبى صلى الله عليه وسلم ودعوته ، وعن الأدلة على وحدانية الله وقدرته . قال - تعالى - : « ألر . تلك آيات الكتاب الحكيم . أ كان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم ، أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ، قال الكافرون إن هذا لساحر مبين . »

ثم نراها فى الربع الثانى منها تصور بأسلوب حكيم طبيعة الإنسان فتقول : « وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره منه ، كذلك زين للسرفين ما كانوا يعملون ، الآية ١٢ » ثم تحكى مصارع الظالمين ، وأقوالهم الفاسدة ، ورد القرآن عليهم فتقول : « ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ، وجاءتهم رسلهم بالبينات ، وما كانوا يؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون . »

وبعد أن تمضى السورة الكريمة فى دحض أقوال المشر كين ، وفى بيان الطبايع البشرية ، نراها فى مطلع الربع الثالث ، تصور لنا حسن عاقبة المتقين ، وسوء عاقبة الضالين ، فتقول : « والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم ، كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . »

ثم تأمر السورة الكريمة النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يسأل المشر كين بأسلوب توبيخى وعن يرزقهم من السموات والأرض ، وعن يبدأ الخلق ثم يعيده ، وعن يهدى إلى الحق ، فتقول : « قل من يرزقكم من السماء والأرض

أم من يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون فذللكم الله ربكم الحق فاذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون .

وبعد أن تتحدى السورة الكريمة المشركين بأن يأتوا بسورة من مثل القرآن الكريم . وتعلن عن عجزهم على رموس الأَشهاد ، تأخذ في تسليمة الرسول — صلى الله عليه وسلم — ، وفي تصوير جانب من أحوالهم في حياتهم وبعد مماتهم فتقول :

« بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ، كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين . ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين . ٤ وإن كذبوك فقل لي عملي ولحكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون »

ثم نراها في الربع الرابع توجه نداء إلى الناس كافة تدعوهم فيه إلى الإقبال على ما جاء به الرول — صلى الله عليه وسلم — من مواعظ فيها الشفاء لما في الصدور ، وفيها الهداية لما في النفوس فتقول :

يأيها الناس قد جاء تسكم موعظة من ربكم ، وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين . قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون .

ثم تسوق جانباً من مظاهر قدرة الله النافذة ، وعلمه المحيط بكل شيء ، فتقول . وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ، ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه ، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ، ٦١ .

وفى مطلع الربع الخامس منها تحكى لنا جانباً من قصة فوح عليه السلام -
جمع قومه ، وكيف أنه فصّحهم ، وذكرهم بآيات الله ، ولكنهم لم يستمعوا
إليه ، فكانت عاقبتهم الإغراق بالطوفان قال - تعالى - :

« فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلانف ، وأغرقنا
الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ، ٧٣ .

ثم تحكى لنا جانباً من قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون ، ومن
المحاورات والمجادلات التى دارت بينهما ، ومن الدعوات المستجابة التى توجه
بها موسى إلى خاله ، فتقول : « وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه
زينة وأموراً فى الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على
أموالهم واشدد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم ٨٨ قال
قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ٨٩ .

ثم نراها فى الربع السادس والآخر منها ، تحكى لنا ما قاله فرعون عندما
أدركه الغرق ، كما نخبرنا عن النهاية الطيبة التى لقوم يونس عليه السلام -
بسبب إيمانهم ، ثم تسوق ألواناً من مظاهر قدرة الله ، ومن حكمه العادل بين
عباده ، ومن رعايته لأوليائه ورسالة فتقول : « ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا
كذلك حقاً علينا فنج المؤمنين ، ١٠٣ .

ثم تختتم السورة الكريمة بتوجيه نداء إلى الناس تبين لهم فيه أن من
اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، وأن من ضل فإنما يضل عليها ، فتقول :
« قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن
ضل فإنما يضل عليها . وما أنا عليكم بوكيل ١٠٨ واتبع ما يوحى إليك
راصد حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ١٠٩ .

تلك أهم المقاصد الإجمالية التي اشتملت عليها السورة الكريمة ، ومنها
نرى بوضوح أن السورة الكريمة قد عنيت بعنايه بارزة بإثبات وحدانية الله
وقدرته النافذة ، وعلمه المحيط بكل شيء ، قارة عن طريق مخلوقاته التي
يشاهدونها كما في قوله — تعالى — : هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر
نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب

وتارة عن طريق إعرافهم بأن الله وحده هو خالقهم ورازقهم ومدير
أمرهم كما في قوله — تعالى — : قل من يرزقكم من السماء والأرض ، أم من
يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من
الحي ، ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون

وتارة عن طريق لجوئهم إليه وحده لاسيما عند الشدائد والمحن ، كما حدث
من فرعون عندما أدركه الغرق .

كذلك نرى السورة الكريمة قد عنيت بدعوة الناس إلى التدبر
والتفكير ، وإلى الاعتبار بمصارع الظالمين ، وإلى عدم التعلق بزخرف
الحياة الدنيا . . .

« إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض
آيات لقوم يتقون » ٦ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا
وإطمأنوا بها ، والذين هم عن آياتنا غافلون ٧ أولئك ماوأهم النار بما
كانوا يكسبون ٨ .

كذلك نرى السورة الكريمة قد اهتمت بالرد على الشبهات التي أثارها
المشركون حول القرآن الكريم ، وحول البعث وما فيه من ثواب وعقاب . . .
فأثبتت أن هذا القرآن من عند الله ، وتحدثهم أن يأتوا بسورة من مثله
فقال : « أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا من
استطاعتم من دون الله إن كنتم صادقين ، ٣٨ .

كما أثبت أن يوم القيامة حق ، وأنهم لن ينجيهم من عذاب الله فى ذلك اليوم قدمهم أو ما يقدمونه من فداء فقالت : د ولو أن لكل نفس ظلمت ما فى الأرض لا فتدت به ، وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ، وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون ، هـ .

هذا ، والسورة الكريمة بعد كل ذلك تمتاز بأنها قد عرضت ما عرضت من هدايات وتوجيهات بأسلوب بليغ مؤثر ، تقشعر منه الجلود ، وتلين منه القلوب ، وتخضع له النفوس ... مما يدل على أن هذا القرآن من عند الله ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

د . محمد سيد طنطاوى

« تفسير سورة يونس - عليه السلام - »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا
أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا
أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ
مُبِينٌ ﴿٢﴾

سورة يونس من السور التي افتتحت ببعض حروف التهجى .

وقد وردت هذه الفواضع تارة مفردة بحرف واحد ، وتارة مركبة من
حرفين ، أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة .

فالسور التي افتتحت بحرف واحد ثلاثة ، وهي سورة : ص ، ق ، ن .
والسور التي افتتحت بحرفين تسعة ، وهي : طه ، يس ، وطس ، وحم
في ست سور ، هي : غافر ، فصلت ، الزخرف ، الدخان ، الجاثية ،
الأحقاف .

والسور التي بدئت بثلاثة أحرف ، ثلاث عشرة سورة ، وهي :
الم في ست سور هي : البقرة ، آل عمران ، العنكبوت ، الروم ، لقمان ،
السجدة . والر في خمس سور هي : يونس ، هود ، يوسف ، الحجر ،
إبراهيم وطسم في سورتين هما : الشعراء . القصص .

وهناك سورتان بدئتا بأربعة أحرف وهما : الرعد والأعراف .

وسورتان بدئتا بخمسة أحرف وهما : مريم والطورى .

فيكون مجموع السور التي افتتحت بالحروف المقطعة تسعا وعشرين سورة.

هذا ، وقد وقع خلاف بين العلماء في المعنى المقصود بذلك الحروف المقطعة التي افتتحت بها بعض السور القرآنية ، ويمكن إجمال خلافهم في رأيين رئيسيين :

الرأى الأول يرى أصحابه : أن المعنى المقصود منها غير معروف ، فهمي من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه .

وإلى هذا الرأى ذهب ابن عباس - في إحدى الروايات عنه - كإذهب إليه الشعبي ، وسفيان الثوري ، وغيرهم من العلماء . فقد أخرج ابن المنذر وغيره عن الشعبي أنه سئل عن فواتح السور فقال : إن لكل كتاب سرا ، وإن سر هذا القرآن في فواتح السور .

ويروى عن ابن عباس أنه قال : عجزت العلماء عن إدراكها . وعن علي - رضي الله عنه - قال : إن لكل كتاب صفوة ، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي ، وفي رواية أخرى عن الشعبي أنه قال : « سر الله فلا تطلبوه » .

ومن الاعتراضات التي وجهت إلى هذا الرأى ، أنه إذا كان الخطاب بهذه الفواتح غير مفهوم للناس ، لأنه من المتشابهة ، فإنه يترتب على ذلك أنه كالخطاب بالمهمل ، أو مثل ذلك كمثل المتكلم بلفظة أعجمية مع أناس عرب لا يفهمونها .

وقد أجيب عن ذلك ، بأن هذه الألفاظ لم ينتف الإفهام عنها عند كل الناس ، فالرسول - صلى الله عليه وسلم - كان يفهم المراد منها ، وكذلك بعض أصحابه المقربين ، ولكن الذي نتقيه أن يكون الناس جميعا فاهمين لمعنى هذه الحروف المقطعة في أوائل بعض السور .

أما الرأى الثاني فيرى أصحابه ، أن المعنى المقصود منها معلوم ، وأنها ليست من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه .

وأصحاب هذا رأى قد اختلفوا فيما بينهم فى تعيين هذا المعنى المقصود على أقوال كثيرة من أهمها ما يأتى :

١ - أن هذه الحروف أسماء للسور ، بدليل قول النبى - صلى الله عليه وسلم - من قرأ حم السجدة حفظ إلى أن يصبح ، وبدليل اشتهار بعض السور بالتسمية بها ، كسورة د ص ، وسورة ديس .

ولا يخلو هذا القول من الضعف ، لأن كثيرا من السور قد افتتحت بلفظ واحد من هذه الفواتح ، والغرض من التسمية رفع الاشتباه .

٢ - وقيل إن هذه الحروف قد جاءت هكذا فاصلة للدلالة على انقضاء سورة ، وابتداء أخرى .

٣ - وقيل : إنها حروف مقطعة ، بعضها من أسماء الله تعالى - وبعضها من صفاته فمثلا د ألم ، أصلها : أنا الله أعلم .

٤ - وقيل : إنها اسم الله الأعظم . إلى غير ذلك من الأقوال التى لا تخلو من مقال ، والتى أوصلها السيوطى فى كتابه ، الاتقان ، إلى أكثر من عشرين قولاً .

٥ - وأهل أقرب الأقوال إلى الصواب أن يقال : إن هذه الحروف المقطعة قد وردت فى افتتاح بعض السور ، الإشعار بأن هذا القرآن الذى تحدى الله به المشركين هو من جنس الكلام المركب من هذه الحروف التى يعرفونها ، ويقدرُونَ على تأليف الكلام منها . فإذا عجزوا على الإتيان بسورة من مثله ، فذلك لبلوغه فى الفصاحة والحكمة مرتبة يقف فصحاؤهم وبلغاؤهم دونها بمراحل شاسعة .

وفضلاً عن ذلك فإن تصدير بعض السور بمثل هذه الحروف المقطعة يجذب أنظار المعرضين عن استماع القرآن حين يتلى عليهم إلى الإنصات والتدبر لأنه يطرُق أسماعهم فى أول التلاوة ألفاظ غير مألوفة فى مجارى كلامهم ، وذلك بما يلفت أفتظارهم ليعتنبوا ما يراود منها ، فيترتب على ذلك أن يسمعوها حكماً ،

وهدايات قد تكون سببا في إيمانهم . ولعل مما يشهد بصحة هذا الرأي: أن الآيات التي تلى هذه الحروف المقطعة ، تتحدث عن القرآن وعن كونه معجزة للرسول - صلى الله عليه وسلم - في أغلب المواضع .

ومن ذلك قوله - تعالى - في أول سورة البقرة : ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، وقوله - سبحانه - في أول سورة هود : د الر . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، وقوله - سبحانه - في أول سورة إبراهيم : د الر . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد .

وهكذا نرى أن كثيرا من السور التي افتتحت بالحروف المقطعة ، قد أعقبت هذا الافتتاح بالحديث الصريح أو الضمني عن القرآن الكريم ، وأن هذه السور إذا تأملتها من أولها إلى آخرها ترى من أهدافها الأساسية ، إثبات وحدانية الله . وإثبات صحة الرسالة المحمدية ، وإثبات أن هذا القرآن الذي هو معجزة الرسول الخالدة - منزل من عند الله - تعالى .

هذه خلاصة لأراء العلماء في المراد بالحروف المقطعة التي افتتحت بها بعض السور القرآنية ، ومن أراد مزيدا لذلك فليرجع - مثلا - إل كتاب « الإتيان ، للسيوطي ، وإلى كتاب « البرهان ، للزركشي ، وإلى تفسير الألوسي ثم قال - تعالى - « تلك آيات الكتاب الحكيم ، .

« تلك ، إسم إشارة ، والمشار إليه الآيات ، والمراد بها آيات القرآن الكريم . ويندرج فيها آيات السورة التي معنا .

والكتاب : مصدر كتب كالكاتب ، وأصل الكتب ضم أديم إلى أديم بالخطاطة ، واستعمل عرفا في ضم الحروف ، بعضها إلى بعض بالخط ، والمراد به القرآن الكريم على الصحيح .

قال الألوسى : وأما حمل الكتاب على الكتاب التى خلت قبل القرآن من التوراة والإنجيل وغيرهما - كما أخرجه ابن أبى حاتم عن قتادة فهو فى غاية البعد (١) .

والحكيم - بزنة فعييل - مأخوذ من الفعل حكم بمعنى منع . تقول حكمت الفرس أى وضعت الحكمة فى فيه المنعها من الجروح والنفور . والمقصود أن هذا الكتاب يمتنع عن الفساد ، ومبرا من الخلل والتناقض والاختلاف .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : وفى وصف الكتاب بكونه حكيمًا وجوه منها : أن الحكيم هو ذو الحكمة ، بمعنى اشتماله على الحكمة - فيكون الوصف للنسبة كلابن وثامر - ومنها أن الحكيم بمعنى الحاكم ، بدليل قوله تعالى - وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، ومنها أن الحكيم بمعنى المحكم ، والإحكام معناه المنع من الفساد ، فيكون المراد منه أنه لا تغيره الدهور أو المراد منه براءة من الكذب والتناقض (٢) . والمعنى : تلك الآيات السامية ، المنزلة عليك يا محمد ، هى آيات الكتاب ، المشتمل على الحكمة والصواب . المحفوظ من كل تحريف أو تبديل ، الناطق بكل ما يوصل إلى السعادة الدنيوية والأخروية .

وصحت الإشارة إلى آيات الكتاب مع أنها لم تكن قد نزلت جميعها ، لأن الإشارة إلى بعضها كالإشارة إلى جميعها ، حيث كانت بصدد الإنزال ، ولأن الله تعالى - قد وعد رسوله - صلى الله عليه وسلم - بنزول القرآن عليه ، كما فى قوله تعالى - إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً ، ووعد الله تعالى - لا يتخلف ثم بين - سبحانه - موقف المشركين من الرسول - صلى الله عليه وسلم -

(١) تفسير الألوسى ج ١١ ص ٥٨ الطبعة المنيرة .

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ١٧ ص ٥ طبعة عبدالرحمن محمد سنة ١٣٥٧ هـ

من دعوته فقال : أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر
الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم .

روى الضحاك عن بن عباس قال . لما بعث الله — تعالى — رسوله محمداً
— صلى الله عليه وسلم — أفكرت العرب ذلك ، أو من أنكر منهم ، وقالوا
الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد ، فأنزل الله — تعالى — :
« أكان للناس عجباً . . . الآية » (١) .

والهمزة في قوله « أكان » ، لإنكار تعجبهم ، ولتعجيب السامعين منه
لوقوعه في غير موضعه .

وقوله « للناس » جار ومجرور حال من قوله « عجباً » والمراد بهم مشركو
مكة ومن اف لفهم في إنكار ما جاء به النبي — صلى الله عليه وسلم — .

وقوله : « عجباً » خبر كان ، والعجب والتعجب — استعظام أمر خفي سببه .
وقوله : « أن أوحينا » في تأويل مصدر أي : إيحائنا ، وهو اسم كان .
والوحي : الإعلام في خفاء . والمقصود به ما أوحاه الله — تعالى — إلى
نبيه — صلى الله عليه وسلم — من قرآن وغيره .

وقوله : « إلى رجل منهم » أي إلى بشر من جنسهم يعرفهم ويعرفونه .
وقوله : « أن أنذر الناس » : الإنذار لإخبار معه تخويف في مدة قد تسع
التحفظ من الخوف منه ، فإن لم تنسح له فهو إعلام وإشعار للإنذار ، وأكثر
ما يستعمل في القرآن في التخويف من عذاب الله — تعالى — .

والمراد بالناس هنا : جميع الذين يمكنه — صلى الله عليه وسلم — أن
يبلغهم دعوته .

وقوله : « وبشر الذين آمنوا بالبشارة : إخبار معه ما يسر فهو أخص من
الخبر ، سمي بذلك لأن أثره يظهر على البشرة التي هي ظاهر الجلد .

وقوله : « أن لهم قدم صدق عند ربهم ، أى : أن لهم سابقة ومنزلة رفيعة عند ربهم .

وأصل القدم العضو المخصوص ، وأطلقت على السبق ، لكونها سببه وآلته ، فسمى المسبب باسم السبب من باب المجاز المرسل ، كما سميت النعمة يدا لأنها تعطى باليد .

وأصل الصدق أن يكون فى الأقوال ، ويستعمل أحيانا فى الأفعال فيقال : فلان صدق فى القتال ، إذا وفاه حقه ، فيعبر بصفة الصدق عن كل فعل فاضل .

وإضافة القدم إلى الصدق من إضافة الموصوف إلى الصفة كقولهم : مسجد الجامع ، والأصل قدم صدق ، أى محققة مقررة . وفيه مبالغة لجعلها عين الصدق ، ثم جعل الصدق كأنه صاحبها .

ويجوز أن تكون إضافة القدم إلى الصدق من باب إضافة المسبب إلى السبب ، وفى ذلك قنبيه إلى أن ما نالوه من منازل رفيعة عند ربهم ، إنما هو بسبب صدقهم فى أقوالهم وأفعالهم ونياتهم .

قال الإمام ابن جرير ما ملخصه : واختلف أهل التأويل فى معنى قوله : « قدم صدق » فقال بعضهم معناه : أن لهم أجرا حسنا بسبب ما قدموه من عمل صالح . .

وقال آخرون معناه : أن لهم سابق صدق فى اللوح المحفوظ من السعادة .

وقال آخرون معنى ذلك أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - شفيع لهم .

ثم قال : وأولى هذه الأقوال عندى بالصواب قول من قال معناه : أن لهم أعمالا صالحة عند الله يستحقون بها منه الثواب ، وذلك أنه محكى عن العرب قولهم : هؤلاء أهل القدم فى الإسلام . أى هؤلاء الذين قدموا فيه خيرا ، فكان لهم فيه تقدس .

ويقال : لفلان عندى قدم صدق وقدم سوء ، وذلك بسبب ما قدم إليه من خير أو شر ، ومنه قول حسان بن ثابت — رضى الله عنه — :

لنا القدم العليا إليك وخلفنا لأولنا فى طاعة الله تابع (١)

ومعنى الآية الكريمة : أبلغ الجهل وسوء التفكير بمشركى مكه ومن على شاكلتهم ، أن كان يحاؤنا إلى رجل منهم يعرفهم ويعرفونه لى يبلغهم الدين الحق ، أمر أعجبا ، يدعوهم إلى الدهشة والاستهزاء بالموحى إليه — صلى الله عليه وسلم — ، حتى لكان النبوة فى زعمهم تقنا فى مع البشرية .

إن الذى يدعو إلى العجب حقا هو ما تعجبوا منه ؛ لأن الله — تعالى — اقتضت حكمته أن يجعل رسله إلى الناس من البشر ، لأن كل جنس يأنس لجنسه ، وينفر من غيره ، وهو — سبحانه — اعلم حيث يجعل رسالته .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : فما معنى اللام فى قوله «أكان للناس عجباً» ؟ وما الفرق بينه وبين قولك : كان عند الناس عجباً ؟

قلت : معناه أنهم جعلوه لهم أعجوبة يتعجبون منها ، ونصبوه علما لهم بوجهون نحوه استهزاءهم وإنكارهم ، وليس فى «عند الناس» هذا المعنى . والذى تعجبوا منه أن يوحى إلى بشر ، وأن يكون رجلا من أفناء رجالهم دون عظيم من عظامائهم ، فقد كانوا يقولون : العجب أن الله لم يجد رسولا يرسله إلى الناس إلا يتيم أبى طالب ، وأن يذكر لهم البعث . وينذر بالنار ويبشر بالجنة ، وكل واحد من هذه الأمور ليس بعجب ، لأن الرسل المبعوثين إلى الأمم لم يكونوا إلا بشرامثلهم .

وقال الله — تعالى — «قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا» (٢) .

(١) تفسير ابن جرير ج ٧ ص ٥٨ طبعة دار المعرفة ببيروت .

(٢) سورة الإسراء الآية ٩٥ .

وإرسال الفقير أو اليتيم ليس بعجب - أيضاً - ؛ لأن الله - تعالى - إنما يختار من استحق الاختيار لجمعه أسباب الاستقلال لما اختير له من النبوة ، والغنى والتقدم فى الدنيا ليس من تلك الأسباب فى شيء . قال - تعالى - : « وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقر بكم عندنا زلفى » (١) .

والبعث للجزاء على الخير والشر . هو الحكمة العظمى ، فكيف يكون عجباً إنما العجب والمنكر فى العقول ، تعطيل الجزاء ، (٢) .

وقدم - سبحانه - خبر كان وهو «عجباً» على اسمها وهو «أن أوحينا» ، لأن المقصود بالإلزام فى الآية إنما هو تعجبهم ودهشتهم من أن يكون الرسول بشراً .

وقدم - سبحانه - الإنذار على التبشير ، لأن التخليية مقدمة على التحلية ، وإزالة ما لا ينبغى مقدم فى الرتبة على فعل ما ينبغى .

ولم يذكر المنذر به ، لتمامه وتعميمه حتى يزداد خوفهم وإقبالهم على الدين الحق ، الذى يودى اتباعه إلى النجاة من العذاب .

وخص التبشير بالمؤمنين لأنهم وحدهم المستحقون له ، بخلاف الإنذار فإنه يشمل المؤمن والكافر ، ولذا قال - سبحانه - « أن أفذر الناس » أى جميع الناس .

وذكر - سبحانه - فى جانب التبشير المبشر به - وهو حصولهم على المنزلة الرفيعة عند ربهم - لكى تقوى رغبتهم فى طاعته ، ومحبتهم لعبادته ، وبذلك ينالون ما بشرهم به .

(١) سورة سبأ . الآية ٣٧ .

(٢) تفسير السكاك . ص ٢٢٤ .

ثم وضع — سبحانه — ما قاله الكافرون عند مجيء الرسول — صلى الله عليه وسلم — بدعوته فقال : د قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ، .
 أى : قال الكافرون المتعجبون من أن يكون محمد — صلى الله عليه وسلم — رسولاً إليهم ، إن هذا الإنسان الذى يدعى النبوة لساحر بين سحر واضحه ، حيث إنه استطاع بقوة تأثيره فى النفوس أن يفرق بين لابن وأبيه ، والأخ وأخيه .

وعلى هذه القراءة التى وردت عن ابن كثير والكوفيين تكون الإشارة إلى الرسول — صلى الله عليه وسلم — .

وقرأ الباقون : د إن هذا لساحر مبين ، أى : إن هذا القرآن لسحر واضح ، لأنه خارق للعادة فى جذبته النفوس إلى الإيمان بما جاء به محمد — صلى الله عليه وسلم — .

قال أبو حيان ما ملخصه : ولما كان قولهم فيها لا يمكن أن يكون سحراً ظاهر الفساد ، لم يحتاج إلى جواب ؛ لأنهم يعلمون نشأته معهم بمسكة .
 وخلطتهم له ، — وأنه لا علم له بالسحر — وقد أقامهم بعد بعثته بكتاب إلهى مشتمل على مصالح الدنيا والآخرة مع الفصاحة والبلاغة التى أعجزتهم ...
 وقولهم هذا هود يدين الكفرة مع أنبيائهم ، فقد قال فرعون وقومه فى موسى — عليه السلام — د إن هذا لساحر عليم ، وقال قوم عيسى فيه عند ما جاءهم بالبينات د هذا ساحر مبين ، ودعوى السحر إنما هى على سبيل العناد والجحد ، (١) .

وقال الألوسى : وفى قولهم هذا اعتراف منهم بأن ما عاينوه خارج عن طوق البشر ، نازل من حضرة خلاق القوى والقدر ، ولاكنهم يسمونه سحراً تماًدباً

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان ج ٥ ص ١٢٣ — طبعة مطبعة السعادة سنة ١٣٢٨ هـ .

فى العناد ، كما هو شذشنة المكابر اللجوج ، ونششنة المفحم المحجوج ، (١) .
وجاءت الجملة الكريمة بدون حرف عطف ، لكونها استثنافا مبنيا على
سؤال مقدر ، فكانه قيل : فماذا قالوا بعد هذا التعجب ؟ فكان الجواب :
قال الكافرون إن هذا لساحر مبين .

ويرى الإمام ابن جرير أن الآية فيها كلام محذوف ، فقد قال - رحمه الله - :
وفى الكلام حذف استغنى بدلالة ما ذكر عثمان ترك ذكره ، وتأويل الكلام :
أكان للناس عجبنا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا
أن لهم قدم صدق عند ربهم ، فلما أتاهم بوحي الله وتلاه عليهم وبشرهم
وأنذرهم ، قال المنكرون لتوحيد الله ورسالة رسوله : إن هذا الذى جاءنا به
محمد - صلى الله عليه وسلم - لسحر مبين (٢) .

وقد اشتملت جملة د إن هذا لساحر مبين ، على جملة من المؤكدات ؛
للإشارة إلى رسوخهم فى الكفر . وإلى أنهم مع وضوح الأدلة على صدق
الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يزدادوا إلا جحودا وعنادا . وصدق الله
إذ يقول : « فإنهم لا يكذبونك » واسكن الظالمين بآيات الله يحسدون ، .
ثم ساق - سبحانه - من مظاهر قدرته ، ما يبطل تعجبهم فقال - تعالى - :

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ
أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأُمُورَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ
إِذْنِهِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ إِلَيْهِ
مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُوهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَلِيَجْزِيَ
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ
مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٦٣﴾

(١) تفسير الألوسى ج ١١ ص ٦٣ .

(٢) تفسير ابن - طبعة ١٩٢٧ هـ .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : اعلم أنه - تعالى - لما حكى عن الكفار أنهم تعجبوا من الوحى والبعثة والرسالة ثم إنه - تعالى - أزال ذلك التعجب بأنه لا يبعد البتة فى أن يبعث خالق الخلق إليهم رسولا يبشرهم وينذرهم... كان هذا الجواب إنما يتم بإثبات أمرين :

أحدهما : إثبات أن لهذا العالم لها قاهرا قادرا ، نافذ الحكم بالآمر والنهى .
والثانى : إثبات الحشر والنشر والبعث والقيامة ، حتى يحصل الثواب والعقاب اللذان أخبر الأنبياء عن حصولهما .

فلا جرم أنه - سبحانه - ذكر فى هذا الموضع ما يدل على تحقيق هذين المطلوبين .

أما الأول : وهو إثبات الألوهية فبقوله - تعالى - : « إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض . . . » .

وأما الثانى : وهو إثبات المعاد والحشر والنشر فبقوله : « إليه مرجعكم جميعا . . . » .

فتثبت أن هذا الترتيب فى غاية الحسن ، ونهاية الكمال ، (١) .

والمعنى : إن ربكم ومالك أمركم - الذى أعجبتم من أن يرسل إليكم رسولا منكم - هو الله الموجد للسموات وللأرض على غير مثال سابق فى مقدار ستة أيام أى أوقات .

فالمراد من اليوم معناه اللغوى وهو مطلق الوقت .

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن تلك الأيام من أيام الآخرة
عالتى يوم منها كآلف سنة مما تعدون .

قال الألوسى : وقيل هى مقدار ستة أيام من أيام الدنيا وهو الأنسب
بالمقام ، لما فيه من الدلالة على القدرة الباهرة بخلق هذه الأجرام العظيمة
فى مثل تلك المدة اليسيرة ، ولأنة تعريف لنا بما نعرفه ، (١) .

وقال بعض العلماء : ولا ندخل فى تحديد هذه الأيام الستة ، فهى لم
تذكر هنا لتتجه إلى تحديد مداها ونوعها ، وإنما ذكرت لبيان حكمة التدبير
والتقدير فى الخلق حسب مقتضيات الغاية من هذا الخلق ، وتهينته لبلوغ
هذه الغاية .

وعلى أية حال فالأيام الستة غيب من غيب الله ، الذى لا مصدر لإدراكه
إلا هذا المصدر ، فعلمنا أن نقف عنده ولا نتعداه ، والمقصود بذكرها هو
الإشارة إلى حكمة التقدير والتدبير والنظام الذى يسير مع الكون من بدئه
إلى منتهاه ، (٢) .

وقال سعيد بن جبير : كان الله قادراً على أن يخلق السموات والأرض
فى لحظة ولحظة ، واسكنه - سبحانه - خلقهن فى ستة أيام ، لى يعلم
عباده الثبوت والتأنى فى الأمور ، .

وقوله : « ثم استوى على العرش ، معطوف على ما قبله ، لتأكيد مزيد
قدرته وعظمته - سبحانه - .

والاستواء من معانيه اللغوية الاستقرار ، ومنه قوله - تعالى -
« واستوت على الجودى » .

(١) تفسير الألوسى ج ١١ ص ٦٤

(٢) تفسير فى ظلال القرآن ج ١١ ص ١٧٦٢ - طبعة دار الشروق .

أى استقرت ، ومن معانيه - أيضاً - الاستيلاء والقهر والسلطان ،
ومنه قول الشاعر :

قد استوى بشر على العراق أى : أستولى عليه
وعرش الله - كما قال الراغب - مما لا يعلمه البشر على الحقيقة إلا بالاسم
وليس كما تذهب إليه أوهم العامة ، فانه لو كان كذلك لكان حاملاً له
- تعالى الله عن ذلك - لا محولاً ، (١) .

وقد ذكر العرش فى القرآن الكريم فى إحدى وعشرين آية ، وذكر
الاستواء على العرش فى سبع آيات .

أما الاستواء على العرش فذهب سلف الأمة إلى أنه صفة لله - تعالى -
بلا كيف ولا انحصار ولا تشبيه ولا تمثيل ، لاستحالة انصافه - سبحانه -
بصفات المحدثين ، ولوجوب تنزيله عما لا يليق به فيجب الإيمان بها كما
وردت وتفويض العلم بحقيقتها إلى الله - تعالى - .

فعن أم سلمة - رضى الله عنها - أنها قالت فى تفسير قوله - تعالى -
والرحمن على العرش استوى : - الكيف غير معقول ، والاستواء مجهول ،
والإقرار به من الإيمان ، والجحود به كفر .

وقال الإمام مالك : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ،
والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

وقال محمد بن الحسن : اتفق الفقهاء جميعاً على الإيمان بالصفات من غير
تفسير ولا تشبيه .

وقال الإمام الرازى : إن هذا المذهب هو الذى نقول به ونختار
ونعتمد عليه .

وذهب بعض علماء الخلف إلى وجوب صرف هذه الصفة وأمثالها عن الظاهر ، لاستحالة حملها على ما يفيد ظاهر اللفظ ، لأنه - سبحانه - مخالف للحوادث ، ووجوب حملها على ما يليق به - سبحانه - .

وعليه فإن الاستواء هنا : كناية عن القهر والعظمة والغلبة والسلطان وقوله : « يدبر الأمر » استئناف مسوق لتقرير عظمتة - سبحانه - ، وليبان حكمة استوائه على العرش .

والتدبير معناه : النظر في أدبار الأمور وعراقبها لتقع على الوجه المحمود . والمراد به هنا : التقدير الجارى على وفق الحكمة التى اقتضتها إرادة الله ومشيتته .

والمراد بالأمر : ما يتعلق بأمور المخلوقات كلها من إنس وجن وغير ذلك من مخلوقاته التى تخصى للعهد .

أى أنه - سبحانه - يدبر أمر مخلوقاته تدبيراً حكيماً . حسبما تقتضيه إرادته وعبر بالمضارع فى قوله : « يدبر » للإشارة إلى تجدد التدبير واستمراره ، إذ أنه - سبحانه - لا يهمل شئ من خلقه .

وقوله : « ما من شفيع إلا من بعد إذن » استئناف آخر مسوق لبيان تفرده فى تدبيره وأحكامه .

والشفيع مأخوذ من الشفع وهو ضم الشىء إلى مثله ، وأكثر ما يستعمل فى انضمام من هو أعلى منزلة إلى من هو أدنى منه ، لإعانتة على ما يريد . والاستثناء هنا مفرغ من أعم الأوقات والأحوال . أى : ما من شفيع يستطيع أن يشفع لغيره فى جميع الأوقات والأحوال إلا بعد إذن - سبحانه - . وشبه هذه الآية قوله - تعالى - « من ذا الذى يشفع عندك إلا بإذنه » (١) .

وقوله - سبحانه - : وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً
إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ، (١) .

واسم الإشارة في قوله - سبحانه - : ذلكم الله ربكم فاعبدوه ، يعود
إلى ذات الله - تعالى - الموصوفة بتلك الصفات الجليلة .

أى : ذلكم الموصوف بالخلق والتدبير والتصرف في شئون خلقه وفق
مشيئته ، هو الله ربكم فأخلصوا له العبادة والطاعة ولا تشركوا معه أحداً في ذلك .

ثم ختم - سبحانه - الآية بالأمر بالتذكر فقال : أفلا تذكرون ، أى :
أتعلمون أن الله - تعالى - هو خالقكم وهو القادر على كل شيء ، ومع ذلك
تستبعدون أن يكون الرسول بشراً ، فملا تذكروا قدرته الله وحكمته حتى تثوبوا
إلى رشدكم ، وتبصروا الحق الذى جاءكم به نبيكم - صلى الله عليه وسلم - :
وإيثاره ، تذكروا ، على تفكروا ، للإيمان بظهور الأمر وأنه كالمعلوم الذى
لا يفتقر إلى عمق في التفكير والبحث والتأمل . إذ أن مظاهر قدرة الله
وعظمته تراها واضحة جليلة في الأنفس والآفاق .

وبذلك نرى الآية الكريمة قد ساقطت ألواناً من مظاهر قدرة الله - تعالى -
وبالغ حكمته ، ونفاذ أحكامه حتى يخلص له الناس العبادة والطاعة .

ثم بين - سبحانه - أن مرجع العباد جميعاً إليه ، وأنه سيجازى كل
إنسان بما يستحقه . فقال - تعالى - : وإليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقاً .
أى : إلى الله - تعالى - وحده مرجعكم جميعاً بعد الموت ليحاسبكم على
أعمالكم ، وقد وعد الله بذلك وعداً صدقاً ، وإن يخالف الله وعده .

قال أبو حبان : وانتصب : وعد الله ، و : حقاً ، على أنهما مصدران
مؤكدان لمضمون الجملة ، والتقدير وعد الله وعداً ، فلما حذف الناصب أضاف .

المصدر إلى الفاعل ، وذلك كقوله « صبغة الله » و « صنع الله » ، والتقدير فى « حقا » : حق ذلك حقا . . . (١) .

وقوله « إنه يبدؤ الخلق ثم يعيده » كالتعليل لما أفاده قوله « سبحانه » -
« إليه مرجعكم » ، فإن غاية البدء والإعادة هو الجزاء المناسب على الأعمال الدنيوية .

أى : إن شأنه « سبحانه » - أن يبدأ الخلق عند تكوينه ثم يعيده إلى الحياة مرة أخرى بعد موته وفنائه .

ثم بين « سبحانه » - الحكمة من الإعادة بعد الموت فقال : « ليعجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط » ، والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون . .

والقسط - كما يقول الراغب - النصيب بالعدل . يقال قسط الرجل إذا جار وظلم . ومنه قوله - تعالى - « وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباء » ، ويقال أقسط فلان إذا عدل ، ومنه قوله - تعالى - « وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » ،

والحميم : الماء الذى بلغ أقصى درجات الحرارة ، قال - تعالى - « وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم » ، أى : فعل ما فعل - سبحانه - من بدء الخلق وإعادتهم ليعجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بعدله الجزاء الطيب الذى أعد لهم ، وأما الذين كفروا فبجزيمهم - أيضا - بعدله ما يستحقونه من شراب حميم يقطع أمعاءهم ، ومن عذاب مؤلم لا يبدانهم ، وذلك بسبب كفرهم واستحبابهم العمى على الهدى .

وقوله : « بالقسط » ، حال من فاعل « ليعجزى » ، ليعجزيمهم ملتبسا بالقسط .
وبصح أن يكون المعنى : فعل ما فعل ليعجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات

الجزاء الحسن بسبب عدلهم وتمسكهم بتكاليف دينهم ، وأما الذين كفروا فلهم شراب من حميم وعذاب أليم بسبب كفرهم .

قال الجمل ما ملخصه : وقال - سبحانه - « والذين كفروا لهم شراب... » بتغيير في الأسلوب للمبالغة في استحقاقهم للعقاب . وللتنبيه على أن المقصود بالذات من الإبداء والإعادة هو الإنابة ، والعذاب وقع بالعرض . وأنه - تعالى - يتولى إنابة المؤمنين بما يليق بملكه وكرمه ، ولذلك لم يعينه ، وأما عقاب الكفرة فكأنه داء مفاقه لإيهم سوء اعتقادهم وسوء أفعالهم (١) . وبعد أن بين - سبحانه - جانباً من مظاهر قدرته في خلق السماوات والأرض ، أتبع ذلك بذكر مظاهر أخرى لقدرته ، تتمثل في خلق الشمس والقمر والليل والنهار فقال - تعالى - :

هُوَ الَّذِي جَعَلَ

الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ
وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ ﴿١﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٢﴾

ففي هاتين الآيتين - كما يقول الألوسي - تنبيه على الاستدلال على وجوده - تعالى - ووحدته وعلمه وقدرته وحكمته . بآثار صديقه في النيرين بعد التنبيه على الاستدلال بآثاره ، وبيان لبعض أفراد التدبير الذي أشير إليه إشارة إجمالية ، وإرشاد إلى أنه - سبحانه - حين دبر أمورهم المتعلقة بمعاشهم وهذا التدبير البديع ، فلان دبر معالجتهم المتعلقة بمعادهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب أولى وأخرى (٢) .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٢٣٤ . طبعة حجازي بالقاهرة .

(٢) تفسير الألوسي ج ١١ ص ٦٧ .

وقوله « جعل » يجوز أن يكون بمعنى أنشأ وأبدع ، فيكون لفظ « ضياء » حال من المفعول ، ويجوز أن يكون بمعنى صير فيكون اللفظ المذكور مفعولا ثانياً .

وقوله « ضياء » جمع ضوء كسوط وسياط ، وحوض وحياض ، وقيل هو مصدر ضاء يضاء ضياء كقام يقوم قياما ، وصام يصوم صياما ، وعلى كلا الوجهين فالكلام على حذف مضاف .

والمعنى : الله - تعالى - وحده هو الذى جعل لكم الشمس ذات ضياء ، وجعل لكم القمر ذا نور ، لئكى تفتقروا بهما فى مختلف شئونكم .

قال الجمل : وخس الشمس بالضياء لأنه أقوى وأكمل من النور ، وخص القمر بالنور لأنه أضعف من الضياء ولأنهما إذا تساوبا لم يعرف الليل من النهار ، فدل ذلك على أن الضياء المختص بالشمس أكمل وأقوى من النور المختص بالقمر ، (١) .

هذا دليل مما يدل على التفرقة بين الشمس والقمر فى نورهما قوله - تعالى - « وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا (٢) » ، وقوله - سبحانه - : « تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقرا منيرا » ، (٣) . وقوله : « وقدره منازل » معطوف على ما قبله .

والقدير : جعل الشيء أو الأشياء على مقادير مخصوصة فى الزمان أو المكان أو غيرهما قال - تعالى - : « والله يقدر الليل والنهار » .

والمنازل : جمع منزل ، وهى أما كن النزول ، وهى - كما يقول بعضهم - ثمانية وعشرون منزلا ، وتنقسم إلى اثنى عشر برجاً وهى : الحمل ، والثور ،

(١) سورة فوح الآية ٤٦

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٢٣٤

(٣) سورة الفرقان ٦١

والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ،
والجدى ، والدلو ، والحوت ، لكل برج منها منزلان وثلاث منزل ،
وينزل القمر فى كل ليلة منزلاً منها إلى إفتضاء ثمانية وعشرين .
ويستتر ليلتين أن كان الشهر ثلاثين يوماً ، ويستتر ليلة واحدة إن كان
الشهر تسعة وعشرين يوماً (١) .

والضمير فى قوله : « قدرناه » يعود إلى القمر ، كما فى قوله - تعالى - :
« والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » .
أى : الله - تعالى - هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا ، وقدر
للقمر منازل ينزل فيها فى كل ليلة على هيئة خاصة ، وطريقة بديعة تدل
على قدرة الله وحكمته .

قالوا : وكانت عودة الضمير إلى القمر وحده ، لسهولة سيره بالنسبة إلى
الشمس ؛ ولأن منازل معلومة محسوسة ، ولأنه العمدة فى توارىخ العرب ،
ولأن أحكام الشرع منوطة به فى الأغلب (٢) .

وجوز بعضهم أن يكون الضمير للشمس والقمر معاً ، أى : وقدر لهما
منازل ، أو قدر لسييرهما منازل لا يجاوزانها فى السير ، ولا يتعدى
أحدهما على الآخر كما قال - تعالى - : « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك
القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » (٣) .

وإنما وحد الضمير للإيجاز كما فى قوله - تعالى - : « والله ورسوله أحق أن
يرضوه » (٤) .

وقوله : « لتعلموا عدد السنين والحساب » بيان للحكمة من الخلق والتقدير ..

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٣٣٤ .

(٢) تفسير الألوسى ج ١١ ص ٦٩ .

(٣) سورة يس . الآية ٤٠ . (٤) سورة التوبة . الآية ٦٢ .

أى : جعل - سبحانه - الشمس ضياء ، والقمر نورا ، وقدره منازل ، لتعلموا عدد السنين التى يفيدكم علمها فى مصالحكم الدينية والدنيوية . وتعلموا الحساب بالآوقات من الأشهر والأيام لضبط عباداتكم ومعاملاتكم .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : يخبر الله - تعالى - عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته ، وعظيم سلطانه ، أنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء ، وجعل شعاع القمر نورا ، هذا فن وهذا فن آخر ، ففأوتى بهما لئلا يشبهها ، وجعل سلطان الشمس بالنهار وسلطان القمر بالليل ، وقدر القمر منازل ، فأول ما يبدو القمر يكون صغيرا ، ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يستوسق وبكامل إبداره ، ثم يشرع فى النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى . فبالشمس تعرف الأيام ، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام ، (١) .

واسم الإشارة فى قوله : ما خلق الله ذلك إلا بالحق ، يعود إلى المذكور من جعل الشمس ضياء والقمر نورا وتقديره منازل .

أى : ما خلق الله ذلك الذى ذكره لكم إلا خلقا ملتبسا بالحق ، ومقترنا بالحكمة البالغة التى تقتضيها مصالحكم .

وقوله : يفصل الآيات لقوم يعلمون ، استئناف مسوق لبيان المنتفعين بهذه الدلائل الدالة على قدرة الله ووحدانيته ورحمته بعباده .

أى : يفصل - سبحانه - ويوضح البراهين الدالة على قدرته لقوم يعلمون الحق ، فيستجيّبون له ، ويكثرّون من طاعة الله وشكره على ما خلق وأنعم .

ثم بين - سبحانه - لونا آخر من ألوان قدرته ورحمته فقال : وإن فى

أختلاف الليل والنهار ، طولا وقصرا ، وحرا وبردا ، وتعاقبا دقيقا لا يسبق أحدهما معه الآخر ، وما خلق الله في السموات والأرض ، من أنواع الإنس والجن والحيوان والنبات والنجم وغير ذلك من المخلوقات التي لا تعد ولا تحصى . .

إن في كل ذلك الذي خلقه ، آيات لقوم يتقون ، أى : لدلائل عظيمة كثيرة دالة على قدرة الله ورحمته ووحدانيته ، لقوم يتقون الله - تعالى - فيحذرون عقابه ، ويرجون رحمته .

وخص - سبحانه - المتقين بالذكر ؛ لأنهم هم المتفعلون بنتائج التدبر في هذه الدلائل .

وبذلك نرى أن القرآن الكريم قد سلك أجمع الوسائل في مخاطبة الفطرة البشرية ، حيث لفت الأنظار إلى ما أشتمل عليه هذا الكون من مخلوقات شاهدة محسوسة ، تدل على وحدانية الله ، وقدرته النافذة ، ورحمته السابغة بعباده .

* * *

ثم بينت السورة الكريمة ما أعدّه الله من عذاب للكافرين ، وما أعدّه من ثواب للطائعين ، فقال - تعالى - :

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا

وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأْنَنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا

غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ

ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَتِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ

الأنهارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ

فِيهَا سَلَامٌ ۖ وَأَخْرَجَهُمْ مِنْهَا دَعَوْهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾

قال الإمام الرازى : أعلم أنه - تعالى - لما أقام الدلائل على صحة القول بإثبات الإله القادر الرحيم الحكيم ، وعلى صحة القول بالمعاد والحشر والنشر ، شرع بعده فى شرح أحوال من يكفر بها ، وفى شرح أحوال من يؤمن بها ، (١) .

والرجاء : الأمل والتوقع لما فيه خير ونفع . وفسره بعضهم بمجرد التوقع الذى يشمل ما يسر وما يسوء .

والمراد بملقائه - سبحانه - الرجوع إليه يوم القيامة للحساب والجزاء . والمعنى : إن الذين لا يرجون ولا يتوقعون لقاءنا يوم القيامة لحسابهم على أعمالهم فى الدنيا ، ورضوا بالحياة الدنيا ، رضاء جعلهم لا يفكرون إلا فى التشبع من زينتها ومتعها ، واطمأنوا بها ، اطمئنانا صيرهم يفرحون بها ويسكنون إليها ، والذين هم عن آياتنا ، التنزيلية والكونية الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا غافلون ، بحيث لا يخطر على بالهم شئ مما تدل عليه هذه الآيات من عجز وعظمت .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف هؤلاء الأشقياء بأربع صفات ذميمة .

وصفهم - أولاً - بعدم الرجاء فى لقاء الله - تعالى - بأن صاروا لا يطمعون فى ثواب ، ولا يخافون من عقاب ، لإنكار الدار الآخرة .

ووصفهم - ثانياً - بأنهم رضوا بالحياة الدنيا ، بأن أصبح همهم محصوراً فيها ، وفى لذائذها وشهواتها .

قال الإمام الرازى : وأعلم أن الصفة الأولى إشارة إلى خلو قلبه عن طلب الذات الروحانية ، وفراغه عن طلب السعادات الحاصلة بالمعارف الربانية

أما هذه الصفة الثانية فهي إشارة إلى استغفره الله في طلب اللذات الجسمانية ،
اكتفائه بها ، واستغفره الله في طلبها ، (١) .

ووصفهم - ثالثا - بأنهم اطمأنوا بهذه الحياة ، اطمئننا الشخص إلى
شيء الذي لا ملاذ له سواه ، فإذا كان السعداء يطمئنون إلى ذكر الله ، فإن
هؤلاء الأشقياء ماتت قلوبهم عن كل خير ، وصارت لا تنظمثن إلا إلى زينة
حياة الدنيا .

ووصفهم - رابعا - بالخفلة عن آيات الله التي توقظ القلب ، وتهدى
عقل ، وتحفز النفس إلى التفكير والتدبير .

وبالجملة فهذه الصفات الأربع ، تدل دلالة واضحة على أن هؤلاء الأشقياء ،
بد آثروا دنياهم على آخرهم ، واستحبوا الضلالة على الهدى ، واستبدلوا
لذي هو أدنى بالذي هو خير .

فإذا كان مصيرهم كما بينه - سبحانه - في قوله : د أولئك ماؤاهم
لنار بما كانوا يكسبون .

أى : أولئك المتصفون بتلك الصفات الخسيسة ، مقرهم وملجأهم الذى
ملجأون إليه النار وبئس القرار ، بسبب ما احتروا من سيئات ، وما اقترفوه
من منكرات .

هذه هى صفات هؤلاء الأشقياء ، وذلك هو جزاؤهم العادل . أما السعداء
بقديين الله - تعالى - بعد ذلك صفاتهم وثوابهم فقال - تعالى - : د إن الذين
آمنوا وعملوا الصالحات ،

أى : آمنوا بما يجب الإيمان به ، وعملوا فى دنياهم الأعمال الصالحة
لتى ترفع درجاتهم عند ربهم .

« يهديهم ربهم بإيمانهم » أى : يرشدهم ربهم ويوصلهم بسبب إيمانهم وعملهم الصالح إلى غايتهم وهى الجنة .

ولأنما لم تذكر تعويلا على ظمورها وانسياق النفس إليها ، بعد أن عرف أن مأوى الكافرين النار وبئس القرار .

قال الإمام ابن كثير : يحتمل أن تكون الباء فى قوله « بإيمانهم » للسببية ، فيكون التقدير بسبب إيمانهم فى الدنيا يهديهم الله يوم القيامة إلى الصراط المستقيم حتى يجوزوه ويخلصوا إلى الجنة ، ويحتمل أن تكون للاستعانة كما قال مجاهد : « يهديهم ربهم بإيمانهم » : أى يكون إيمانهم لهم نورا يمشون به وقال ابن جريج فى الآية : يمثل له عمله فى صورة حسنة ، وريح طيبة إذا قام من قبره يعارض صاحبه ويبشره بكل خير فيقول له من أنت ؟ فيقول أنا عملك ، فيجعل له نوره من بين يديه حتى يدخله الجنة ، فذلك قوله - تعالى - « يهديهم ربهم بإيمانهم » . والكافر يمثل له عمله فى صورة سيئة ، وريح منتنة فيلزم صاحبه حتى يقذفه فى النار (١)

وقوله : « تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم » أى : تجرى من تحت منازلهم أو مقاعدهم الأنهار ، وهم آمنون مطمئنون فى الجنات ، يتمتعون فيها بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وقوله : « دعواهم فيها سبحانك اللهم » أى : دعاؤهم فى هذه الجنات يكون بقولهم : سبحانك اللهم . فالدعوى هاهنا بمعنى الدعاء . يقال دعا يدعوا دعاء ودعوى . كما يقال : شكوا يشكو شكاية وشكوى .

ولفظ سبحان : اسم مصدر بمعنى التسبيح ، وهو منصوب بفعل مضمر لا يكاد يذكر معه .

ولفظ اللهم أصله يا الله ، فلما استعمل دون حرف النداء الذى هو «يا» جعلت هذه الميم المشددة فى آخره عوضا عن حرف النداء .

قال الإمام الرازى : وما يقوى أن المراد من الدعوى هنا الدعاء ، أنهم قالوا : اللهم ، وهذا نداء لله - تعالى - ومعنى قولهم : سبحانك اللهم . إنا نسبحك ، كقول القائل فى دعاء القنوت : اللهم إياك نعبد ، . ثم قال : ويجوز أن يراد بالدعاء العبادة ، ونظيره قوله - تعالى - « وأعتزلكم وما تدعون من دون الله ، أى : وما تعبدون . فيكون معنى الآية ، أنه لا عبادة لأهل الجنة إلا أن يسبحوا الله ويحمدوه ، ويكون اشتغالهم بذلك الذكر لا على سبيل التكليف ، بل على سبيل الابتهاج بذكر الله - تعالى - (١) . وقوله : وتحببتهم فيها سلام ، معطوف على ما قبله . والتحية : التكرمة بالحال الجليلة ، وأصلها أحياءك الله حياة طيبة . والسلام : بمعنى السلامة من كل مكروه .

أى : دعاؤهم فى الجنة أن يقولوا : سبحانك اللهم . وتحببتهم التوحييون بها هى السلامة من كل مكروه .

وهذه التحية تكون من الله - تعالى - لهم كما فى قوله - سبحانه - « تحببتهم يوم يلقونه سلام (٢) » .

وتكون من الملائكة كما فى قوله - تعالى - : « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » (٣) .

وتكون منهم فيما بينهم كما يتبادر من قوله - تعالى - « ولا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما ... » (٤) .

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١٧ ص ٤٣ (٢) سورة الأحزاب الآية ٤٤

(٣) سورة الرعد الآيتان ٢٤ ، ٢٥ (٤) سورة مريم الآية ٦١

وقوله : « وآخر دعوانهم أن الحمد لله رب العالمين ، أى . وختام دعائهم يكون بقولهم : الحمد لله رب العالمين ،

قال الإمام القرطبي ماملخصه : « يؤخذ من هذه الآية الكريمة أن التمهيل والتسبيح والحمد قد يسمى دعاء .

روى الشيخان ابن عباس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يقول عند الكرب : « لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم . لا إله إلا الله رب السموات والأرض ، ورب العرش الكريم ، . قال الطبري : كان السلف يدعون بهذا الدعاء ويسمونه دعاء الكرب .

والذى يقطع النزاع وأن هذا يسمى دعاء ، وإن لم يكن فيه من معنى الدعاء شيء ، وإنما هو تعظيم لله - تعالى - وثناء عليه ، مارواه النسائي عن سعد بن أبي وقاص قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « دعوة ذي النون إذ دعا بها في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، فإنه ان يدعو بها مسلم في شيء إلا استجيب له ، .

ويستحب للداعي أن يقول في آخر دعائه كما قال الله - تعالى - حكاية عن أهل الجنة : « وآخر دعوانهم أن الحمد لله رب العالمين ، (١) .

• • •

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر لطفه ورحمته بالناس ، وما جبلوا عليه من صفات وطبائع فقال - تعالى - :

وَلَوْ

يُعِجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ
 فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ
 الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ
 ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّهِ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ
 مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾

قال صاحب المنار: هاتان الآيتان في بيان شأن من شئون البشر وغرائزهم فيما
 يعرض لهم في حياتهم الدنيا من خير وشر ، ونفع وضر ، وشعورهم بالحاجة
 إلى الله - تعالى - واللجوء إلى دعائه لأنفسهم وعليها ، واستعجالهم الأمور
 قبل أوانها . وهو تعريض بالمشركين ، وحجة على ما يأتون من شرك ،
 وما ينكرون من أمر البعث ، متمم لما قبله ، ولذلك عطف عليه ، (١) .
 وقوله : « يعجل » من التعجيل بمعنى طلب الشيء قبل وقته المحدد له .
 والاستعجال : طلب التعجيل بالشيء .
 والأجل : الوقت المحدد لا نقضاء المدة . وأجل الإنسان هو الوقت
 المضروب لانهاء عمره .

والمراد بالناس هنا - عند عدد من المفسرين - : المشركون الذي وصفهم
 الله - تعالى - قبل ذلك بأنهم لا يرجون لقاءه ورضوا بالحياة الدنيا
 واطمأنوا بها .

ولقد حكى القرآن في كثير من آياته ، أن المشركين قد استعجلوا الرسول
 ﷺ في نزول العذاب ، ومن ذلك قوله - تعالى - « ويستعجلونك »

بالعذاب ، ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب ، وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين (١) ، وقوله - تعالى - :
« وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » (٢) .

والمعنى : ولو يعجل الله - تعالى - لهؤلاء المشركين العقوبة التى طلبوها ، تعجيلاً مثل استعجالهم الحصول على الخير ، « لقضى إليهم أجلهم » أى :
لأميتوا وأهلكوا جميعاً ، ولسكن الله - تعالى - الرحيم بخلقه ، الحكيم فى أفعاله ، لا يعجل لهم العقوبة التى طلبوها كما يعجل لهم طلب الخير لحكمة هو يعلمها ؛ فقد يكون من بين هؤلاء المتعجلين للعقوبة من يدخل فى الإسلام ، ويتبع الرسول - عليه الصلاة والسلام - .

قال الإمام الرازى : فقد بين - سبحانه - فى هذه الآية . أنهم لا مصلحة لهم فى تعجيل إيصال الشر إليهم ، لأنه - تعالى - لو أوصل ذلك العقاب إليهم لما اتوا وهلكوا ، ولا صلاح فى إقامتهم ، فربما أمنوا بعد ذلك ، وربما خرج من أصلابهم من كان مؤمناً ، وذلك يقتضى أن لا يعاجلهم بإيصال ذلك الشر ، (٣) .

ومن العلماء من يرى أن المراد بالناس هنا ما يشمل المشركين وغيرهم ، وأن الآية السكرية تحكى لوناً من ألوان لطف الله بعباده ورحمته بهم .

ومن المفسرين الذين اقتصروا على هذا الاتجاه فى تفسيرهم الإمام ابن كثير ، فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : بخير - تعالى - عن حلمه واطفه بعباده أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم .

(١) سورة العنكبوت الآيتان ٥٢ ، ٥٣ .

(٢) سورة الأنفال الآية ٤٢ .

(٣) تفسير الف... الرحمن محمد .

بالشر في حال ضجرهم وغضبهم ، وأنه يعلم منهم عدم القصد إلى إرادة ذلك ، فلهذا لا يستجيب لهم والحالة هذه لطفاً ورحمة ، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم أو لأولادهم بالخير والبركة والسخاء ، ولهذا قال : ولو يعجل الله للناس الشر استعجلهم بالخير لقضى إليهم أجلهم
 أي : لو استجاب لهم جميع ما دعوه به في ذلك لأهلكهم .

ثم قال : ولكن لا ينبغي إلا كثرار من ذلك ، كما جاء في الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده عن جابر قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لا تدعوا على أنفسكم ، لا تدعوا على أولادكم ، لا تدعوا على أموالكم ، لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم ، .

وقال مجاهد في تفسير هذه الآية : هو قول الإنسان لولده أو ماله إذا غضب عليه : اللهم لا تبارك فيه والعنه ، فلو يعجل لهم الاستجابة في ذلك كما يستجيب لهم في الخير لأهلكهم (١) .

أما الإمام الألوسي فقد حكى هذين الوجهين ، ورجح الأول منهما فقال : قوله : ولو يعجل الله للناس الشر وهم الذين لا يرجون لقاء الله - تعالى - المذكورون في قوله : إن الذين لا يرجون لقاء الله والمراد لو يعجل الله لهم الشر الذي كانوا يستعجلون به تكذيباً واستهزاء وأخرج ابن جرير عن قتادة : أنه قال : هو دعاء الرجل على نفسه وماله بما يكره أن يستجاب له ، وفيه حمل الناس على العموم ، والمختار الأول ، ويؤيده ما قيل : من أن الآية نزلت في النضر بن الحارث حين قال : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذابه أليم ، (٢) .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٠٩ .

(٢) تفسير الألوسي ج ١١ ص ٧٩ .

والذى يبدو لنا أن كون لفظ الناس للجنس أولى ، ويدخل فيه المشر كون دخولا أوليا ، لأنه لا توجد قرينة تمنع من إرادة ذلك ، وحتى لو صح ما قيل من أن الآية نزلت فى الضر بن الحارث ، فإن العبارة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وقوله « استعجلهم بالخير » منصوب على المصدرية . والأصل : ولو يعجل الله للناس الشر تعجيلا مثل استعجلهم بالخير ، فحذف تعجيلا وصفته المضافة ، وأقيم المضاف إليه مقامها .

ثم بين - سبحانه - ما يشير إلى الحكمة فى عدم تعجيل العقوبة فقال : « فنذر الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون » .

والطغيان : مجاورة الحد . فى كل شىء ، ومنه طغا الماء إذا ارتفع وتجاوز حده .

ويعمهمون : من العمه . يقال : عمه - كفرح ومنع - عمها ، إذا تخير وتردد فهو عمه وعامه .

أى : لا تعجل للناس ما طلبوه من عقوبات ، وإنما اترك الذين لا يرجون لقاءنا يوم القيامة ، على سبيل الإمهال والاستدراج فى الدنيا فى طغيانهم يتحiron ويتدردون ، بحيث فلتبس عليهم الأمور فلا يعرفون الخير من الشر .

ثم صور - سبحانه - طبيعة الإنسان فى حالتى العسر واليسر فقال : « وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره . . . » .

والمس : اتصال أحد الشئيين بآخر على وجه الاحساس والإصابة . والضر : ما يصيب الإنسان من سوء الحال فى نفسه أو بدنه أو غيرها مما يحبه ويشتميه .

والمعنى : وإذا مس الإنسان الضر عن طريق المرض أو الفقر أو غيرها

«دعانا ، بإلحاح وتضرع لكي تكشفه عنه ، فهو تارة يدعونا وهو مضطجع على جنبه ، وتارة يدعونا وهو قاعد ، وتارة يدعونا وهو قائم على قدميه ..
« فلما كشفنا عنه ضربه ، وما أصابه من سوء دمر كأن لم يدعنا إلى ضرر مسه ، أى : مضى واستمر فى غفلته الأولى حتى لا كأنه لم تنزل به كرب ، ولم يسبق له أن دعانا بإلحاح لكشفها .

وخمس - سبحانه - هذه الأحوال بالذكر : لعدم خلو الاسان عنها فى العادة .

وقيل : يصح أن يراد بهذه الأحوال تعميم أصناف المضار ، لأنها قد تكون خفيفة فيدعونا أنه وهو قائم ، وقد تكون متوسطة فيدعوه وهو قاعد ، وقد تكون ثقيلة فيدعوه وهو نائم .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الآية . فان قلت : فما فائدة ذكر هذه الأحوال .

قلت : معناه أن المضرور لا يزال داعياً لا يفر عن الدعاء حتى يزول عنه الضر ، فهو يدعونا فى حالاته كلها ، سواء أكان منبسطاً عاجزاً عن النهوض ، أم كان قاعداً لا يقدر على القيام ، أم كان قائماً لا يطيق المشى . . .

ويجوز أن يراد أن من المضرورين من هو أشد حالاً وهو صاحب الفراش ، ومنهم من هو أخف ، وهو القادر على القعود ، ومنهم المستطيع للقيام ، وكلهم لا يستغنون عن الدعاء واستدفاع البلاء ، لأن الإنسان للجنس .. (١) وفى التعبير بالمس ، إشارة إلى أن ما أصابه من ضرر حتى ولو كان يسيراً فإنه لا يترك الدعاء والابتهاال إلى الله بأنه يكشفه عنه ،

وقوله « لجنبه » فى موضع الحال من فاعل « دعا » ، ود أو ، لتنويع الأحوال ، أو لأصناف المضار .

والتعبير بقوله - سبحانه - دمر، يمثل أدق تصوير لطبيعة الإنسان الذى يدعو الله عند البلاء ، وينسأه عند الرخاء ، فهو فى حالة البلاء يدعو الله فى كل الأحوال ، فإذا ما تم كشف عنه البلاء مرر واندمع فى تيار الحياة ، بدون كايح ، ولا زاجر ، ولا مبالاة ، وبدون توقف ليتدبر أوليغته . . .
ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : « كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ، أى : كما زين لهذا الإنسان الدعاء عند البلاء والإعراض عند الرخاء ، زين لهؤلاء المسرفين المتجاوزين لحدود الله ، ما كانوا يعملونه من إعراض عن ذكره ، ومن غفلة عن حكمته وعن سننه فى كونه .

قال الآلوسى : وفى الآية ذم لمن يترك الدعاء فى الرخاء ، ويهرع إليه فى الشدة ، واللائق بحال العاقل التضرع إلى مولاه فى السراء والضراء ، فإن ذلك أرجى للإجابة . وفى الحديث الشريف : « تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي الدرداء قال : أدع الله يوم سرائك يستجب لك يوم ضرائك .

وفى حديث للترمذى عن أبى هريرة ورواه الحاكم عن سلمان وقال صحيح الإسناد . من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد والكروب ، فليكثر من الدعاء عند الرخاء ، (١) .

وقال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ، وقدم ذم الله - تعالى - من هذه طريقته وصفته فى الدعاء . أما من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد فإنه مستثنى من ذلك ، - لأنه يدعو الله فى الشدة والرخاء - ، وفى الحديث الشريف : عجباً لأمر المؤمن لا يقض الله له قضاء إلا كان خيراً له : إن أصابته ضراء فصبّر كان خيراً له ، وإن أصابته سراء فشكر كان خيراً له ،

وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، (١) .

وبعد أن بين - سبحانه - جانباً من شأنه مع الناس ومن شأنهم معه .
أتبع ذلك ببيان مصير الأمم الظالمة ليكون في ذلك عبرة وعظة فقال - تعالى - :

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا

وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي

الْقَوْمَ الْمَجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلِيفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ

لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

والخطاب في قوله : « ولقد أهلكنا . . . » لأهل مكة الذين كانوا
معاصرين للنبي - صلى الله عليه وسلم - ومنازعين لدعوته ، ويدخل فيه غيرهم
من يصلح للخطاب على سبيل التبع .

والقرون جمع قرن . والقرن - كما يقول القرطبي - الأمة من الناس ؛
قال الشاعر :

إذا ذهب القرن الذي كنت فيهم وخلفت في قرن فأنت غريب
فالقرن كل عالم في عصره ، مأخوذ من الاقتران ، أى عالم مقترن بعضهم
إلى بعض .

وفى الحديث الشريف : خير القرون قرنى - يعنى أصحابي - ثم الذين
يلونهم ، ثم الذين يلونهم . . .

فالقرن على هذا مدّة من الزمان . قيل : ستون عاماً ، وقيل سبعون ، وقيل
ثمانون ، وقيل : مائة سنة ، وعليه أكثر أصحاب الحديث ، أن القرن مائة سنة ،
واحتجوا بأن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال لعبد الله بن بسر : تعيش قرناً
فعاش مائة سنة (٢) ودلّاء ظرف بمعنى حين ، وهو متعلق بقوله « أهلكنا » .

والمراد بالريـح الطيـبة : الرـيح المـناسـبة لـسـير السفن ، والموافقة لـاتـجـاهـها .
 أى : هو - سـبـحـانـه - وحده الذى ينقلكم من مكان إلى آخر فى البر
 والبحر ، حتى إذا كنتم فى إحدى مرات تسييركم راكبين فى السفن التى سخرها
 لكم ، وجرت هذه السفن لمن فيها بسبب الرـيح الطيـبة إلى المسكن الذى
 قصدونه ، وأنتم فى حالة فرح غامر ، وسرور شامل جاءتـها رـيح
 عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم
 والريـح العاصف : هى الرـيح الشديـدة القويـة . يقال : عصفت الرـيح
 وأعصفت ، فهى عاصف إذا اشتدت فى سرعتها وهيجانها . .

والموج : ما ارتفع من مياه البحار ، والظن هنا بمعنى اليقين أو الاعتقاد
 الراجح . وقوله : « أحيط بهم » أى : أحاط بهم البلاء من كل ناحية . يقال
 لمن وقع فى بلية ، قد أحيط به . وأصل هذا أن العدو إذا أحاط بعدوه
 جعله على حافة الهلاك .

أى بعد أن جرت السفن بهؤلاء القوم فى البحر وهم فى فرح وحبور ،
 جاءت إليهم ريح عاصفة شديدة السرعة والعنـف ، وارتفع إليها الموج
 من كل مكان ، واعتقد ركبها - الذين كانوا منذ قليل فرحين مبتهجين -
 أنهم قد أحاط بهم الهلاك كما يحيط العدو بعدوه .

وقوله : « بهم » فيه التفتات من الخطاب إلى الغيبة ، لأنه كان الظاهر أن
 يقال : حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بكم ، لكن جاء الكلام على أسلوب
 الالتفات ، المبالغة فى تقييح أحوالهم ، وسوء منيعهم ، وإعمال شئونهم ،
 قال صاحب الكشف : فإن قلت ما فائدة صرف الكلام من الخطاب
 إلى الغيبة ؟ قلت المبالغة كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ، ويستدعى
 منهم الإنكار والتقبيح ، (١) .

وقوله : «دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين» بيان لما قالوه بعد أن داهمتهم الرياح العاصفة ، والأمواج العالية وبعد أن أيقنوا أنهم على حافة الموت .

أى فى تلك الساعات العصيبة ، واللاحظات الحرجة ، توجهوا إلى الله وحده قائلين : نقسم لك ياربنا ، وبإمان لا يعجزك شىء ، لئن أنجيتنا من تلك الأهوال التى نحن فيها ، لنكونن من الشاكرين لك ، المطيعين لأمرك ، المتبعين لشرعك . . .

وهنا ، وبعد هذا الدعاء العريض ، هدأت العاصفة ، وانخفضت الأمواج ، وسكنت النفوس بعض السكون ، ووصلت السفن إلى شاطئ الأمان فإذا كانت النتيجة ؟

كانت النتيجة كما صورها القرآن الكريم : «فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق . . .» .

أى : حين أبحاهم الله - تعالى - بفضلته ورحمته من هذا الكرب العظيم الذى كانوا فيه ، إذا هم يسعون فى الأرض فساداً ، ويرتكبون البغى الفاضح الذى لا يخفى قبحه على أحد .

وقيد البغى بكونه بغير الحق ، لأنه لا يكون إلا كذلك ، إذ البغى معناه : تجاوز الحق . يقال : بغى الجرح إذا تجاوز حده فى الفساد .

فقلوه : «بغير الحق» تأكيد لما يفيد البغى من التعدى والظلم ، فهو بغى ظاهر سافر لا يخفى قبحه على أحد .

وقيل قيده بذلك ليخرج البغى على الغير فى مقابلة بغيه . فانه يسمى بغياً فى الجملة ، لكنه بحق . وهو قول ضعيف ، لأن دفع البغى لا يسمى بغياً . وإنما يسمى انصافاً من الظالم ، ولذا قال القرآن الكريم : «لمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل» (١) وجاء التعبير بالفاء وإذا الفجائية ، للإشعار

بأنهم قوم بلغ بهم اللؤم والجحود ، أنهم بمجرد أن وطئت أقدامهم بر
الأمان ، نسوا ما كانوا فيه من أهوال ، وسارعوا إلى الفساد فى الأرض ،
دون أن يردعهم رادع ، أو يصددهم ترغيب أو ترهيب .

والتعبير بقوله « فى الأرض » الإشارة إلى أن يغلبهم قد شمل أقطارها ،
ولم يقتصر على جانب من جوانبها .

وقوله - سبحانه - « يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة
الدنيا ثم إنا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون » خطاب منه - سبحانه -
لأولئك البغاة فى كل زمان ومكان ، قصد به التهديد والوعيد .

أى : يا أيها الناس الذين تضرعوا إلينا فى ساعات الشدة ، وهروا إلى
البغى بعد زوال تلك الشدة ، اعلّموا أن بغيكم هذا مرجعه إليكم لا إلى غيركم
فأنتم وحدكم الذين ستتحملون سوء عاقبته فى الدنيا والآخرة .

واعلموا أن هذا البغى إنما تتمتعون به متاع الحياة الدنيا التى لا بقاء
لها ، وإنما هى إلى زوال وفناء .

واعلموا كذلك أن مردكم إلينا بعد هذا التمتع الفانى . فنخبركم يوم
الدين بكل أعمالكم ، وسنجازيكم عليها بالجزاء الذى تستحقونه .

وقوله : « إنما بغيكم » مبتدأ وخبره « على أنفسكم » أى هو عليكم
فى الحقيقة لا على الذين تبغون عليهم وقوله : « متاع الحياة الدنيا » : قرأ
حفص عن عاصم « متاع » بفتح العين على أنه مصدر مؤكد لفعل مقدر
أى : تتمتعون به متاع الحياة الدنيا الزائلة الفانية .

وقرأ الجمهور بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف والتقدير : هو متاع الحياة
الدنيا . وقوله : « ثم إنا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون » تذييل قصد
به تهديدهم على بغيهم .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التي أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتي :
 ١ — أن من الواجب على العاقل أن يكثّر من ذكر الله في حالتي الشدة
 لرخاء ، وأن لا يكون ممن يدعون الله عند الضر ويذسونه عند العافية ،
 الحديث الشريف : « تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة » .

٢ — أن الناس جبلوا على الرجوع إلى الله وحده عند المصائب والمحن ،
 ذلك يقول الألوسي : روى أبو داود والنسائي وغيرهما عن سعد بن أبي وقاص
 : لما كان يوم الفتح فر عكرمة بن أبي جهل فركب البحر فأصابهم ريح
 صنف . فقال أصحاب السفينة أركبوا : أخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئا .
 ال عكرمة : لئن لم ينجني في البحر إلا الإخلاص ، ما ينجيني في البر غيره .
 ثم إن لك عهدا إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمدا حتى أضع يدي
 يده ، فلا جدنه عفووا كريما . قال : فجاء فأسلم .

وفي رواية ابن سعد عن أبي مليكة : أن عكرمة لما ركب السفينة وأخذتهم
 ريح فجعلوا يدعون الله - تعالى - ويوحّدونه فقال ما هذا ؟ فقالوا : هذا
 كان لا ينفع فيه إلا الله - تعالى - . قال : « فهذا ما يدعونا إليه محمد -
 لي الله عليه وسلم - فارجعوا بنا . فرجع وأسلم . . . » (١) .

وقال الفخر الرازي : يحكى أن واحدا قال لجعفر الصادق : اذكر لي دليلا
 على إثبات الصانع ؟ فقال له : أخبرني عن حرفتك . فقال : أنا رجل أتجر
 البحر . فقال له : صنف لي كيفية حالك . فقال : ركب البحر فأنكسرت
 سفينة وبقيت على لوح واحد من ألواحها ، وجاءت الريح العاصفة . فقال
 مفر : هل وجدت في قلبك تضرعا ودعاء . فقال نعم . فقال جعفر : فإلهك
 الذي تضرعت إليه في ذلك الوقت ، (٢) .

(١) تفسير الألوسي ج ١١ ص ٩٧ .

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ١٧ ص ٢٧ .

وقد ساق صاحب المنار قصة ملخصها أن رجلاً إنجليزياً قرأ ترجمة قوله
- تعالى - د هو الذى يسيركم فى البر والبحر ... ، فراعته بلاغة وصفها
لطفيان البحر ... وكان يعمل قائداً لإحدى السفن ... فسأل بعض المسلمين :
أتعلمون أن نبيكم - صلى الله عليه وسلم - قد سافر فى البحار ؟
فقالوا له لا د فأسلم الرجل لأنه اعتقد أن القرآن ليس من كلام
البشر وإنما هو كلام الله - تعالى - . (١) .

٣ - دل قوله - تعالى - يا أيها الناس إنما بغيتكم على أنفسكم ... ، على أن
البغى يحازى أصحابه عليه فى الدنيا والآخرة .

فأما فى الآخرة فهو مادل عليه ، إنذار أهله بأنه - سبحانه - سيحازيهم عليه
أسوأ الجزاء .

وأما فى الدنيا فبدليل قوله - تعالى - يا أيها الناس إنما بغيتكم على أنفسكم ،
ويؤيده ما رواه البخارى فى الأدب المفرد والترمذى وابن ماجه والحاكم من
حديث أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
قال : ما من ذنب يعجل الله لصاحبه العقوبة فى الدنيا مع ما يدخر له فى
الآخرة من البغى وقطيعة الرحم ، (٢) .

قال الآلوسى : وفى الآية من الزجر عن البغى ما لا يخفى ، فقد أخرج
أبو نعيم والخطيب والديلمى وغيرهم عن أنس قال : قال رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - ثلاث من رواجع على أهلها : المكر والنكث والبغى . ثم تلا
- صلى الله عليه وسلم - قوله - تعالى - : يا أيها الناس إنما بغيتكم على أنفسكم ،
وقوله - تعالى - : ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ، وقوله - تعالى - ولا يحق
المكر السيئ . إلا بأهله .

(١) راجع تفسير المنار ج ١١ ص ٣٤١ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن عمر قالا : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لو بغى جبل على جبل لك الباغى منهما » .

وكان المأمون يتمثل بهذين البيتين لأخيه :

أصاحب البغى إن البغى مصرعه فارجع فخير فعال المرء أعـدله
لو بغى جبل يوما على جبل لافدك منه أعاليه وأسفله (١)
ثم ساق - سبحانه - مثلا لمتاع الحياة الدنيا الزائلة ، ولزخرفها الفاني ،
قال - تعالى - :

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ

لَنَلَّهُ مِنَ السَّمَاءِ فَآخَضَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ
لَا نَنعَمُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ
لَهَا أَنَّهُمْ قُلُودُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا
صِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْرَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

وقوله - سبحانه - « إنما مثل .. » ، المثل بمعنى المثل . والمثل : النظير
والشبيه ، ثم أطلق على القول السائر المعروف للمأثلة مضربه - وهو الذي يضرب
فيه - لمورده الذي ورد فيه أولا . ولا يكون إلا فيما فيه غرابة . ثم استعير
لمصفة أو الحال أو القصة إذا كان لها شأن عجيب وفيها غرابة ، وعلى هذا المعنى
يحمل المثل في هذه الآية وأشباهاها .

والأمثال إنما تضرب لتوضيح المعنى الخفي ، وتقريب الشيء المعقول من
الشيء المحسوس ، وعرض الأمر الغائب في صورة المشاهد ، فيكون المعنى
الذي ضرب له المثل أوقع في القلوب ، وأثبت في النفوس .

والمعنى : إنما صفة الحياة الدنيا وحالها فى سرعة زوالها ، وانصرام
تعيمها بعد إقباله ، كحال د ماء أنزلاء من السماء فاختلط به نبات الأرض ،
أى : فكثير بسببه نبات الأرض حتى التف وتشابك بعضه ببعض لازدهاره
وتجاوزه ونمائه .

وشبهه - سبحانه - الحياة بماء السماء دون ماء الأرض ، لأن ماء السماء
وهو المطر لا تأثير له كسب العبد فيه بزيادة أو نقص ، بخلاف ماء الأرض ،
فكان تشبيه الحياة به أنسب .

وقوله : د مما يأكل الناس والأنعام ، معناه : وهذا النبات الذى نما وازدهر
بسبب نزول المطر من السماء ، بعضه مما يأكله الناس كالبقول والفواكه .
وبعضه مما تأكله الأنعام كالخشائش والأعشاب المختلفة .
وجملة د مما يأكل الناس والأنعام ، حال من النبات .

وقوله : د حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت . . . تصوير
بديع لما صارت عليه الأرض بعد نزول الماء عليها ، وبعد أن أنبتت من كل
نوع بهيج .

ولفظ د حتى ، غاية لمحدوف : أى نزل المطر من السماء فاهتزت الأرض
وربت وأنبتت النبات الذى مازال ينمو ويزدهر حتى أخذت الأرض
زخرفها .

والزخرف : الذهب وكال حسن الشئ . ومن القول حسنه ، ومن
الأرض أو ان نباتها .

أى : حتى إذا استوفت الأرض حسنها وبهاءها وجمالها ، وازينت بمختلف
أنواع النباتات ذات المناظر البديعة ، والألوان المتعددة .

قال صاحب الكشف : وهو كلام فصيح . جعلت الأرض آخذة زخرفها
حزبتها على التمثيل بالع . . . إذا أخذت الشاب الفاخر من كل لون فاكتسبها ،

تزينت بغيرها من ألوان الزينة ، أصل ازينت تزينت ، (١) .

وقال الألوسى : وذكر غير واحد أن الكلام استعارة بالسكناية ، حيث
سميت الأرض بالعروس ، وحذف المشبه به ، وأقيم المشبه مقامه ، وإثباته
زخرف لها تخييل ، وما بعده ترشيح (٢) .

وقوله : د و ظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أى : وظن أهل تلك الأرض
زخرفة بالنباتات النافعة ، أنهم قادرون على قطف ثمارها . ومتمكنون من
تمتع بخيراتها ، ومن الانتفاع بغلاتها .

وقوله : د أفاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا . . . ، تصوير مهجز
أصاب زرعها من هلاك بعد نضرتها واستوائه و د أو ، للتوبيخ أى : قارة
فى ليلا وقارة يأتى نهارا .

والجملة السكريمة جواب لما فى قوله د حتى إذا أخذت الأرض زخرفها . . .
أى : بعد أن بلغت الأرض الذروة فى الجمال وفى تعلق الآمال بمنافع
روعها ، أفاها قضاؤنا النافذ ، وأمرنا المقدر لإهلاكها بالليل وأصحابها قائمون ،
بأنهار وهم لاهون ، فجعلناها بما عليها كالأرض المحصودة ، التى
متوصل زرعها .

وقوله : كأن لم تغن بالأمس ، تأكيد لحلاكها واستئصال ما عليها من
ات بصورة سريعة حاسمة .

أى : جعلناها كالأرض المحصودة التى قطع زرعها ، حتى لو كانها لم يكن
امنذ وقت قريب : الزرع النضير ، والنبات البهيج ، والنخل الباسق ،
الطلع النضيد . . .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٣٣ .

(٢) تفسير الألوسى ج ١١ ص ١٠١ .

قال القرطبى : قوله : وكان لم تغن بالأمس ، أى : لم تكن عامرة ، من غنى بالمكان إذا أقام فيه وعمره ، والمعانى فى اللغة : المنازل التى يعمرها الناس ، (١) .

وقال ابن كثير : قوله : وكان لم تغن بالأمس ، أى كأنها ما كانت حينما قبل ذلك ، وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن ، ولهذا جاء فى الحديث الشريف : د يوتى بأنعم أهل الدنيا فيغمس فى النار غمسة فيقال له : هل رأيت خيرا قط ؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول لا . ويوتى بأشد الناس عذابا فى الدنيا فيغمس فى النعيم غمسة ثم يقال له : هل رأيت بؤسا قط ، فيقول لا ، (٢) .

والمراد بالأمس هنا : الوقت الماضى القريب : لا خصوص اليوم الذى قبل يومك .

وقوله : كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ، تذييل قصد به الحض على التفكير والاعتبار .

أى : كهذا المثل فى وضوحه وبيانه لحال الحياة الدنيا ، وقصر مدة التمتع بها ، نفصل الآيات ونضرب الأمثال الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا لقوم يحسنون التفكير والتدبر ، فى ملكوت السموات والأرض .

قال الجبل ماملخصه : وهذه الآية مثل ضربه الله تعالى - للتشبه فى الدنيا ، الزاغب فى زهرتها وحسنها ووجه التشبه أن غابة هذه الدنيا التى ينتفع بها المرء ، كناية عن هذا النبات الذى لما عظم الرجاء فى الانتفاع به ، وقع اليأس منه . ولأن التمسك بالدنيا إذا نال منها بغيته أقامه الموت بغتة فسلبه ما هو فيه من نعيم الدنيا ولذتها ، (٣) .

(١) تفسير القرطبى ج ٨ ص ٢٢٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤١٣ .

(٣) حاشية الجبل على الجلالين ج ٢ ص ٣٤٢ .

وبعد أن بين - سبحانه - حال الحياة الدنيا ، وقصر مدة التمتع بها ، أتبع ذلك بدعوة الناس جميعاً إلى العمل الصالح الذي يوصلهم إلى الجنة فقال - تعالى - :

وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ
إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ
وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾
وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنْ
اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا
أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾

والمقصود بدار السلام : الجنة التي أعدها الله - تعالى - لعباده المؤمنين .
وسميت بذلك ، لأنها الدار التي سلم أهلها من كل ألم وآفة ، أو لأن تحييتهم
فيها سلام ، أو لأن السلام من أسماء الله - تعالى - فأضيفت إليه تعظيماً لشأنها ،
وتشريعاً لقدرها ، كما يقال للكعبة : بيت الله .

وقوله : « والله يدعو إلى دار السلام ... » معطوف على محذوف يدل
عليه السياق .

والتقدير : الشيطان يدعوكم إلى إبطار متاع الحياة الدنيا وزخرفها ، والله
- تعالى - يدعو الناس جميعاً إلى الإيمان الحق الذي يوصلهم إلى دار كرامته .
وقوله : « ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » معطوف على ما قبله .
أي : ويهدي من يشاء هدايته إلى الصراط المستقيم ، المؤدى بصاحبه إلى
رضوان الله ومغفرته .

والمراد بالصراط المستقيم : الدين الحق الذي شرعه الله لعباده ، وبلغه لهم
عن طريق نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - .

وقوله : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ... » بيان لحسن عاقبة الذين استجابوا لدعوته ، واتبعوا صراطه المستقيم .

أى : للمؤمنين الصادقين الذين قدموا فى دنياهم الأعمال الصالحة ، المنزل الحسنى ، والمشوبة الحسنى وهى الجنة ، ولهم زيادة على ذلك التفضل من الله - تعالى - عليهم بالنظر إلى وجهه الكريم .

وتفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم ، مأثور عن جمع من الصحابة منهم أبو بكر ، وعلى بن أبى طالب ، وابن مسعود ، وأبو موسى الأشعرى وغيرهم - رضى الله عنهم - .

ومستندهم فى ذلك الأحاديث النبوية التى وردت فى هذا الشأن والتى منها ما أخرجه مسلم فى صحيحه عن صهيب - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : تلا هذه الآية « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ... » وقال : إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، نادى مناد : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا ، يريد أن ينجزكموه .

فيقولون : ما هو ؟ ألم يثقل موازيننا ، ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ، ويزحزحنا عن النار ؟ قال : فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه ، ولا أقر لأعينهم ، (١) وذكر بعضهم أن المراد بالزيادة هنا : مضاعفة الحسنات بعشر أمثالها أو أكثر ، أو مغفرته - سبحانه - ما فرط منهم فى الدنيا ، ورضوانه عليهم فى الآخرة . والحق أن التفسير الوارد عن الصحابة ، والمؤيد بما جاء فى الأحاديث النبوية هو الواجب الاتباع ، ولا يصح العدول عنه ، ولا مانع من أن يمن الله عليهم بما يمن من مضاعفة الحسنات ومن المغفرة والرضوان ، بعد نظرهم إلى وجهه الكريم ، أو قبل ذلك .

ولذا قال الإمام ابن كثير ماملخصه : قوله « وزيادة » هي تضعيف ثوابه الأعمال .. وأفضل من ذلك النظر إلى وجهه الكريم . فانه زيادة أعظم من جميع ما يعطوه .. وقد روى تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم عن جمع من السلف والخلف ؛ وقد وردت أحاديث كثيرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في ذلك ، ومنها ما رواه ابن جرير عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : إن الله يبعث يوم القيامة منادياً ينادى بأهل الجنة - بصوت يسمعه أولهم وآخرهم - إن الله وعدكم الحسنى وزيادة . فالحسنى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه الرحمن - عز وجل - .

وعن أبي بن كعب أنه سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن قوله الله - تعالى - « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » قال : « الحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الله - تعالى - » (١) .

والمقصود بقوله : « ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة » : الإخبار عن خلوص نعيمهم من كل ما يكدر الصفو ، إثر بيان ما أعطاهم من رضوان . وقوله : « يرهق » من الرق بمعنى الغشيان والتغطية . يقال : رهقه برهقه رهقا . - من باب طرب - أى غشيه وغطاه بسرعة .

والقتر والقرة : الغبار والدخان الذى فيه سوء ، والذلة : الهوان والصغار . يقال : ذل فلان يذل ذلة وذلا ، إذا أصابه الصغار والحقارة .

أى ولا يغطى وجوههم يوم القيامة شيء مما يغطى وجوه الكفار ، من السواد والهوان والصغار .

وهذه الجملة بما اشتملت عليه من معانى ، تروى بأن فى يوم القيامة من الزحام والأهوال والكروب . ما يجعل آثار الحزن أو الفرح ظاهرة على الوجوه والمشائر ، فهناك وجوه « عليها غبرة ترهقها قتر » وهناك وجوه « فاضره إلى ربها ناظرة » .

وقوله : (أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) تذييل قصد به تأكيد
حدّهم ومسرّتهم .

أى : أولئك المتصفون بتلك الصفات الكريمة هم أصحاب دار السلام ،
وهم خالدون فيها خلودا أبديا ، لا خوف معه ولا زوال .

ثم بين - سبحانه - مصير الظالمين ، بعد أن بين حسن عاقبة المحسنين ،
ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة فقال - تعالى - : « والذين
كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ، وترهقهم ذلة ، ما لهم من الله من عاصم ،
كأنما أغشيت قلوبهم الليل مظلمة . . . » .

أى : إذا كان جزاء الذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، فإن جزاء الذين
اجترحوا السيئات ، وافترقوا الموبقات ، سيئات مثل السيئات التى ارتكبوها
كما قال - تعالى - « وجزاء سيئة سيئة مثلها » .

والمقصود أنهم كما كسبوا السيئات فى الدنيا ، فإن الله - تعالى - يجازيهم
عليها فى الآخرة بما يستحقون من عذاب ومصير سيء .

وقوله : « وترهقهم ذلة ، أى : وتغشاهم وتغطيهم ذلة عظيمة ، ومهانة
شديدة . وفى إسناد الرهق إلى أنفسهم دون وجوههم ، إيدان بأنها محبطة
بهم من كل جانب .

وقوله : « ما لهم من الله من عاصم ، أى : ليس لهم أحد يعصمهم أو يجرىهم
أو يشفع لهم ، بحيث ينجون من عذاب الله - تعالى - .
وقوله : « كأنما أغشيت وجوههم قلوبهم من الليل مظلمة ، قصير بديع
للظلام الحسى والمعنوى الذى يبدو على وجوه هؤلاء الظالمين .

أى : كأنما ألبست وجوههم قلوبهم من الليل المظلم ، والسواد الحالك ،
حتى صارت شديدة السواد واضحة الكدرة والظلمة .

وقوله : د أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، بيان لسوء عاقبتهم ،
وتعاسة أحوالهم .

أي : أولئك المتصفون بتلك الصفات الذميمة ، أصحاب النار هم فيها
خالدون خلودا أبديا لانهاية له .

وهكذا نرى في هذه الآيات السكرية تصويرا بديعا لما عليه المؤمنون
الصادقون من صفات حسنة ، ومن جزاء كريم ، يتجلى في رفع درجاتهم ،
وفي رضا الله - تعالى - عنهم ، كما نرى فيها - أيضا - وصفا معجزا لأحوال
الخارجين عن طاعته ؛ وعن المصير المؤلم ، الذي ينتظرهم يوم القيامة ، د يوم
لا تملك نفس لنفس شيئا ، والأمر يومئذ لله .

ثم حكى - سبحانه - جانبنا من الأقوال التي تدور بين المشركين وبين
شركائهم يوم القيامة ، فقال - تعالى - :

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا
ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَزَيْلَنَا بَيْنَهُمْ
وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكُنِيَ بِاللَّهِ شَهِيدًا
بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ
نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا
يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

وقوله : ونحشرهم ، أي نجتمعهم يوم القيامة للحساب ، يقال : حشر القائد
جنده ، إذا جمعهم للحرب أو لأمر من الأمور .
ويوم ظرف زمان منصوب بفعل مقدر .

والمعنى : واذكر أيها الرسول الكريم أو أيها الإنسان العاقل ، يوم نجتمع
الناس كافة ، لنحاسبهم على أعمالهم في الدنيا .

ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم، أى: ثم نقول للمشركين منهم فى هذا اليوم العصيب ، إلزموا مكانكم أنتم وشركاؤكم فلا تبرحوه حتى يقضى الله قضاء دفيكم . فقوله : « مكانكم » ظرف مكان منصوب بفعل مقدر . وقوله (شركاؤكم) معطوف على ضمير الفعل المقدر ، وقوله (أنتم) تأكيد له . أى قفوا مكانكم أنتم وشركاؤكم .

وجاء العطف بـ ثم ، للإشارة إلى أن بين حشرهم وبين ما يقال لهم ، مواقف أخرى فيها من الأهوال ما فيها ، فثم هنا للتراخى النسبى .

وقال - سبحانه - مكانكم أنتم وشركاؤكم - مع أن المشركين كانوا يعتبرون معبوداتهم شركاء لله - من باب التهمك بهم . والإشارة إلى أن ما عبدوهم لم يكونوا فى يوم من الأيام شركاء لله ، وإنما المشركون هم الذين وصفوهم بذلك افتراء وكذبا .

وجاء وصفهم بالشرك فى حين الصلة ، للإيدان بأنه أكبر جناياتهم ؛ وأن شركهم بالله - تعالى - هو الذى أدى بهم إلى هذا المصير المؤلم .

وقوله : (فزبلنا بينهم) أى: ففرقنا بينهم ، وقطعنا ما بينهم من صلوات ، وميزنا بعضهم عن بعض كما يميز بين الخصوم عند التقاضى والمساءلة .

وزبلنا : من التزبيل بمعنى التمييز والتفريق . يقال : زبلت الشيء أزيله إذا نحيت وأبعدته ، ومنه قوله - تعالى - : (لو نزلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما (١)) أى : لو تميزوا وتفرقوا .

وعبر بالفاء للدلالة على أن هذا التفريق والتمييز ، قد حدث عقب الخطاب من غير مهلة . وجاء الأسلوب بصيغة الماضى مع أن هذا التزبيل سيكون فى الآخرة ، للإيدان بتحقيق الوقوع ، وإلى زيادة التوبيخ والتحسير لهم . وقوله : (وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون) معطوف على ما قبله .

والمراد بالشركاء : كل ما عبد من دون الله من إنس وجن وأوثان وغير ذلك .

أى : وقال شركاؤهم الذين أشركوهم فى العبادة مع الله - تعالى - : إنكم أيها المشركون لم تكوّنوا لنا عابدين فى الدنيا ، وإنما كنتم تعبدون أشياء أخرى زينها الشيطان لكم ؛ فانقدتم له بدون تدبر أو تعقل .
والمقصود بقولهم هذا التبرى من المشركين ، وتوبيخهم على أفكارهم الفاسدة .

وقوله : فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين ، تأكيد لهذا التبرى والإنكار ، ورجوع إلى الشهادة الحق فى ذلك .

و د إن ، فى قوله د إن كنا ، مخففة من الثقيلة .. أى : فكفى أن يكون الله - تعالى - شهيدا وحكما بيننا وبينكم ، فهو - سبحانه - يعلم حالنا وحالكم ، ويعلم أننا كنا فى غفلة عن عبادتكم لنا ، بحيث إننا ما فكرنا فيها ولا رضىنا بها .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة ببيان أحوال الناس فى هذا اليوم العظيم فقال : هنالك تملو كل نفس ما أسلفت ، وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون .

أى : هنالك فى ذلك الموقف الهائل الشديد ، تختبر كل نفس مؤمنة أو كافرة ، ما سلفت منها من أعمال ، فترى ما كان نافعا أو ضارا من هذه الأعمال . وترى الجزاء المناسب عن كل عمل بعد أن عاد الجميع إلى الله مولاهم الحق ، ليقتضى بينهم بقضائه العادل ، وقد غاب عن المشركين فى هذا الموقف ما كانوا يفترونه من أن هناك آلهة أخرى ستشفع لهم يوم القيامة .

وهكذا نرى الآيات الكريمة تصور أحوال الناس يوم الدين تصويراً

والمراد بالريـح الطيـبة : الرـيح المـناسـبة لـسـير السفن ، والموافقة لـاتـجـاهـها .
 أى : هو - سبحانه - وحده الذى ينقلكم من مكان إلى آخر فى البر
 والبحر ، حتى إذا كنتم فى إحدى مرات تسيركم راكبين فى السفن التى سخرها
 لكم ، وجرت هذه السفن لمن فيها بسبب الرـيح الطيـبة إلى المكان الذى
 تقصدونه ، وأنتم فى حالة فرح غامر ، وسرور شامل جاءتكم ريح
 عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم
 والريـح العاصف : هى الرـيح الشديـدة القويـة . يقال : عاصفت الرـيح
 وأعصفت ، فهى عاصف إذا اشتدت فى سرعتها وهيجانها . .

والموج : ما ارتفع من مياه البحار ، والظن هنا بمعنى اليقين أو الاعتقاد
 الراجح . وقوله : « أحيط بهم » أى : أحاط بهم البلاء من كل ناحية . يقال
 لمن وقع فى بلية ، قد أحيط به . وأصل هذا أن العدو إذا أحاط بعدوه
 جعله على حافة الهلاك .

أى بعد أن جرت السفن بهؤلاء القوم فى البحر وهم فى فرح وحبور ،
 جاءت إليهم ريح عاصفة شديدة السرعة والقلم ، وارتفع إليها الموج
 من كل مكان ، واعتقد ركبها - الذين كانوا منذ قليل فرحين مبتهجين -
 أنهم قد أحاط بهم الهلاك كما يحيط العدو بعدوه .

وقوله : « بهم » فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة ، لأنه كان الظاهر أن
 يقال : حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بكم ، لكن جاء الكلام على أسلوب
 الالتفات ، المبالغة فى تقييح أحوالهم ، وسوء مصيبتهم ، وإعمال شئونهم ،
 قال صاحب الكشف : فإن قلت ما فائدة صرف الكلام من الخطاب
 إلى الغيبة ؟ قلت المبالغة كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ، ويستدعى
 منهم الإنكار والتقبيح ، (١) .

وقوله : « دعوا الله مخلصين له الدين لنن أنجيتمنا من هذه النكوفن من الشاكرين ، بيان لما قالوه بعد أن داهمتهم الرياح العاصفة ، والأمواج العالية وبعد أن أيقنوا أنهم على حافة الموت .

أى فى تلك الساعات العصيبة ، واللحظات الحرجة ، توجهوا إلى الله وحده قائلين : نقسم لك ياربنا ، وبامن لا يعجزك شىء ، لنن أنجيتمنا من تلك الأهوال التى نحن فيها ، لنسكون من الشاكرين لك ، المطيعين لأمرك ، المتبعين لشرعك . . .

وهنا ، وبعد هذا الدعاء العريض ، هدأت العاصفة ، وانخفضت الأمواج ، وسكنت النفوس بعض السكون ، ووصلت السفن إلى شاطئ الأمان فماذا كانت النتيجة ؟

كانت النتيجة كما صورها القرآن الكريم : « فلما أنجاهم إذا هم يبخون فى الأرض بغير الحق . . . »

أى : خين أبحاهم الله - تعالى - بفضلله ورحمته من هذا الكرب العظيم الذى كانوا فيه ، إذا هم يسمعون فى الأرض فساداً ، ويرتكبون البغى الفاضح الذى لا يخفى قبحه على أحد .

وقيد البغى بكونه بغير الحق ، لأنه لا يكون إلا كذلك ، إذ البغى معناه : تجاوز الحق . يقال : بغى الجرح إذا تجاوز حده فى الفساد .

فقوله : « بغير الحق ، تأكيد لما يفيد البغى من التعدى والظلم ؛ فهو بغى ظاهر سافر لا يخفى قبحه على أحد .

وقيل قيده بذلك ليخرج البغى على الغير فى مقابلة بغيه . فانه يسمى بغياً فى الجملة ، لكنه بحق . وهو قول ضعيف ، لأن دفع البغى لا يسمى بغياً . وإنما يسمى انصافاً من الظالم ، وإذا قال القرآن الكريم : « ولمن اقتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ، (١) وجاء التعبير بالفاء وإذا الفجائية ، الإشعار

بأنهم قوم بلغ بهم اللؤم والجحود ، أنهم بمجرد أن وطئت أقدامهم بر
الأمان ، نسوا ما كانوا فيه من أهوال ، وسارعوا إلى الفساد فى الأرض ،
دون أن يردعهم رادع ، أو يصددهم ترغيب أو ترهيب .

والتعبير بقوله « فى الأرض » الإشارة إلى أن يغلبهم قد شمل أقطارها ،
ولم يقتصر على جانب من جوانبها .

وقوله - سبحانه - « يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة
الدنيا ثم إلينا مرجعكم فنبئكم بما كنتم تعملون » خطاب منه - سبحانه -
لأوائك البغاة فى كل زمان ومكان ، قصد به التهديد والوعيد .

أى : يا أيها الناس الذين تضرعوا إلينا فى ساعات الشدة ، وهربوا إلى
البغى بعد زوال تلك الشدة ، اعلموا أن بغيكم هذا مرجعه إليكم لا إلى غيركم
فأنتم وحدكم الذين ستتحملون سوء عاقبته فى الدنيا والآخرة .

واعلموا أن هذا البغى إنما تتمتعون به متاع الحياة الدنيا التى لا بقاء
لها ، وإنما هى إلى زوال وفناء .

واعلموا كذلك أن مردكم إلينا بعد هذا التمتع الفانى . فنخبركم يوم
الدين بكل أعمالكم ، وسنجازيكم عليها بالجزاء الذى تستحقونه .

وقوله : « إنما بغيكم » مبتدأ وخبره « على أنفسكم » أى هو عليكم
فى الحقيقة لا على الذين تبغون عليهم وقوله : « متاع الحياة الدنيا » : قرأ
حفص عن عاصم « متاع » بفتح العين على أنه مصدر مؤن كد لفعل مقدر
أى : تتمتعون به متاع الحياة الدنيا الزائلة الفانية .

وقرأ الجمهور بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف والتقدير : هو متاع الحياة
الدنيا . وقوله : « ثم إلينا مرجعكم فنبئكم بما كنتم تعملون » تذييل قصد
به تهديدهم على بغيهم .
تدعوا وينزجروا .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التي أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتي :

١ - أن من الواجب على العاقل أن يكثّر من ذكر الله في حالتي الشدة والرخاء ، وأن لا يكون ممن يدعون الله عند الضر ويذسونه عند العافية ، ففي الحديث الشريف : « تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة » .

٢ - أن الناس جبلوا على الرجوع إلى الله وحده عند المصائب والمحن ، وفي ذلك يقول الألوسي : روى أبو داود والنسائي وغيرهما عن سعد بن أبي وقاص قال : لما كان يوم الفتح فر عكرمة بن أبي جهل فركب البحر فأصابتهم ريح عاصف ، فقال أصحاب السفينة أركابها : أخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئا . فقال عكرمة : إئن لم ينجنني في البحر إلا الإخلاص ، ما ينجنني في البر غيره . اللهم إن لك عهدا إن أنت عافيتني عما أنا فيه أن آتي محمدا حتى أضع يدي في يده ، فلا جدنه عفوكم كريما . قال : فجاء فأسلم .

وفي رواية ابن سعد عن أبي مايكة : أن عكرمة لما ركب السفينة وأخذتهم الرياح فجعلوا يدعون الله - تعالى - ويوحّدونه فقال ما هذا ؟ فقالوا : هذا مكان لا ينفع فيه إلا الله - تعالى - . قال : « فهذا ما يدعوننا إليه محمد - صلى الله عليه وسلم - فارجعوا بنا . فرجع وأسلم . . . » (١) .

وقال الفخر الرازي : يحكى أن واحدا قال لجعفر الصادق : اذكر لي دليلا على إثبات الصانع ؟ فقال له : أخبرني عن حرفتك . فقال : أنا رجل أتجر في البحر . فقال له : صف لي كيفية حالك . فقال : ركبت البحر فانهكسرت السفينة وبقيت على لوح واحد من الواحها ، وجاءت الريح العاصفة . فقال جعفر : هل وجدت في قلبك تضرعا ودعاء . فقال نعم . فقال جعفر : فإلهك هو الذي تضرعت إليه في ذلك الوقت ، (٢) .

(١) تفسير الألوسي ج ١١ ص ٩٧ .

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ١٧ ص ٢٧ .

وقد ساق صاحب المنار قصة ملخصها أن رجلا إنجليزيا قرأ ترجمة قوله
- تعالى - « هو الذى يسيركم فى البر والبحر ... » فراعته بلاغة وصفها
لطغيان البحر ... وكان يعمل قائدا لإحدى السفن ... فسأل بعض المسلمين :
أتعلمون أن نبيكم - صلى الله عليه وسلم - قد سافر فى البحار ؟
فقالوا له لا « فأسلم الرجل لأنه اعتقد أن القرآن ليس من كلام
البشر وإنما هو كلام الله - تعالى - » (١) .

٣ - دل قوله - تعالى - « يا أيها الناس إنما بغيتكم على أنفسكم ... » على أن
البغى يجازى أصحابه عليه فى الدنيا والآخرة .

فأما فى الآخرة فهو مادل عليه، إنذار أهله بأنه - سبحانه - سيجازيهم عليه
أسوأ الجزاء .

وأما فى الدنيا فبدليل قوله - تعالى - « يا أيها الناس إنما بغيتكم على أنفسكم »
ويؤيده ما رواه البخارى فى الأدب المفرد والترمذى وابن ماجه والحاكم من
حديث أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
قال : ما من ذنب يعجل الله لصاحبه العقوبة فى الدنيا مع ما يدخر له فى
الآخرة من البغى وقطيعة الرحم ، (٢) .

قال الآلوسى : وفى الآية من الزجر عن البغى ما لا يخفى ، فقد أخرج
أبو نعيم والخطيب والديلمى وغيرهم عن أنس قال : قال رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - ثلاث من رواجه على أهلها : المكر والنكث والبغى . ثم تلا
- صلى الله عليه وسلم - قوله - تعالى - : « يا أيها الناس إنما بغيتكم على أنفسكم » .
وقوله - تعالى - « ومن نكث فإنما ينكث على نفسه » . وقوله - تعالى - « ولا يحق
المكر السيئ إلا بأهله » .

(١) راجع تفسير المنار ج ١١ ص ٣٤١ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن عمر قالا : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لو بغى جبل على جبل لك الباغى منهما » .

وكان المأمون يتمثل بهذين البيتين لأخيه :

أصاحب البغى إن البغى مصرعه فارجع فخير فعال المرء أعدله
لو بغى جبل يوما على جبل لأفدك منه أعاليه وأسفله (١)
ثم ساق - سبحانه - مثلا لمتاع الحياة الدنيا الزائل ، ولزخرفها الفانى ،
قال - تعالى - :

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ

لَنُتَّهِ مِنْ السَّمَاءِ فَآخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ
لَا نَعْلَمُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ
لَهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرٌ نَالِيًّا أَوَّنَهَا فَأُجَعْلَنَهَا
صِيدًا كَانَتْ تَغْرَبُ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَذْكُرُونَ ﴿٢٤﴾

وقوله - سبحانه - « إِنَّمَا مَثَلُ ... » المثل بمعنى المثل . والمثل : النظير
والشبيه ، ثم أطلق على القول السائر المعروف للمأثلة مضربه - وهو الذى يضرب
فيه - لمورده الذى ورد فيه أولا . ولا يكون إلا فيما فيه غرابة . ثم استعير
لمصنفه أو الحال أو القصة إذا كان لها شأن عجيب وفيها غرابة ، وعلى هذا المعنى
يحمل المثل فى هذه الآية وأشباهاها .

والأمثال إنما تضرب لتوضيح المعنى الخفى ، وتقريب الشيء المعقول من
الشيء المحسوس ، وعرض الأمر الغائب فى صورة المشاهد ، فيكون المعنى
الذى ضرب له المثل أوقع فى القلوب ، وأثبت فى النفوس .

والمعنى : إنما صفة الحياة الدنيا وحالها فى سرعة زوالها ، وانصرام تعميمها بعد إقباله ، كحال د ماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ، أى : فكثير بسببه نبات الأرض حتى التف وتشابك بعضه ببعض لازدهاره وتجاوزه ونمائه .

وشبهه - سبحانه - الحياة بماء السماء دون ماء الأرض ، لأن ماء السماء وهو المطر لا تأثير له كسب العبد فيه بزيادة أو نقص ، بخلاف ماء الأرض ، فكان تشبيه الحياة به أنسب .

وقوله : د مما يأكل الناس والأنعام ، معناه : وهذا النبات الذى نما وازدهر بسبب نزول المطر من السماء ، بعضه مما يأكله الناس كالبقول والفواكه . وبعضه مما تأكله الأنعام كالشائش والأعشاب المختلفة .

وجملة د مما يأكل الناس والأنعام ، حال من النبات .

وقوله : د حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت . . . ، تصوير بديع لما صارت عليه الأرض بعد نزول الماء عليها ، وبعد أن أنبتت من كل زوج زوج .

ولفظ د حتى ، غاية لمحدوف : أى نزل المطر من السماء فاهتزت الأرض وربت وأنبتت النبات الذى مازال ينمو ويزدهر حتى أخذت الأرض زخرفها .

والزخرف : الذهب وكمال حسن الشيء . ومن القول حسنه ، ومن الأرض أوان نباتها .

أى : حتى إذا استوفت الأرض حسنها وبهاءها وجمالها ، وازينت بمختلف أنواع النباتات ذات المناظر البديعة ، والألوان المتعددة .

قال صاحب الكشاف : وهو كلام فصيح . جعلت الأرض آخذة زخرفها وزينتها على التمثيل كل لون فاكستها ،

وتزينت بغيرها من ألوان الزينة ، أصل ازينت تزينت ، (١) .

وقال الألوسى : وذكر غير واحد أن الكلام استعارة بالسكناية ، حيث شبهت الأرض بالعروس ، وحذف المشبه به ، وأقيم المشبه مقامه ، وإنبات الزخرف لها تخييل ، وما بعده ترشيح (٢) .

وقوله : « وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أى : وظن أهل تلك الأرض لراخرة بالنباتات النافعة ، أنهم قادرون على قطف ثمارها . ومتمكنون من التمتع بخيراتها ، ومن الانتفاع بغلاتها .

وقوله : « أمّاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا .. » تصوير معجز لما أصاب زرعها من هلاك بعد نضرتها واستوائه و « أو » للتوبيخ أى : قارة بأتى ليلا وقارة بأتى نهارا .

والجملة السكريمة جواب لما فى قوله « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها .. » أى : بعد أن بلغت الأرض الذروة فى الجمال وفى تعلق الآمال بمنافع زروعها ، أمّاها قضاؤنا النافذ ، وأمرنا المقدر لإهلاكها بالليل وأصحابها نائمون ، وبالنهار وهم لاهون ، فجعلناها بما عليها كالأرض المحصودة ، التى استؤصل زرعها .

وقوله : « كأن لم تغن بالأمس » تأكيد لهلاكها واستئصال ما عليها من نبات بصورة سريعة حاسمة .

أى : جعلناها كالأرض المحصودة التى قطع زرعها ، حتى لو كانها لم يكن بها منذ وقت قريب : الزرع النضير ، والنبات البهيج ، والنخل الباسق ، والطلع النضيد ...

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٣٣ .

(٢) تفسير الألوسى ج ١١ ص ١٠١ .

قال القرطبى : قوله : وكان لم تغن بالأمس ، أى : لم تكن عامرة ؛ من غنى بالمكان إذا أقام فيه وعمره ، والمغنى فى اللغة : المنازل التى يعمرها الناس ، (١) .

وقال ابن كثير : قوله : وكان لم تغن بالأمس ، أى كأنها ما كانت حينما قبل ذلك ، وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن ، ولهذا جاء فى الحديث الشريف : « يؤتى بأهل الدنيا فيغمس فى النار غمسة فيقال له : هل رأيت خيرا قط ؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول لا . ويؤتى بأشد الناس عذابا فى الدنيا فيغمس فى النعيم غمسة ثم يقال له : هل رأيت بؤسا قط ، فيقول لا ، (٢) .

والمراد بالأمس هنا : الوقت الماضى القريب : لا خصوص اليوم الذى قبل يومك .

وقوله : كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ، تفيد قصد به الحض على التفكير والاعتبار .

أى : كهذا المثل فى وضوحه وبيانه لحال الحياة الدنيا ، وقصر مدة التمتع بها ، نفصل الآيات ونضرب الأمثال الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا لقوم يحسنون التفكير والتدبر ، فى ملكوت السموات والأرض .

قال الجمل ماملخصه : وهذه الآية مثل ضرب به الله تعالى - للتشبه فى الدنيا ، الراغب فى زهرتها وحسنها ووجه التمثيل أن غاية هذه الدنيا التى ينتفع بها المرء ، كناية عن هذا النبات الذى لما عظم الرجاء فى الانتفاع به ، وقع اليأس منه . ولأن التمسك بالدنيا إذا نال منها بغيته أقام الموت بغته فسلبه ما هو فيه من نعيم الدنيا ولذتها ، (٣) .

(١) تفسير القرطبى ج ٨ ص ٢٢٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤١٣ .

(٣) حاشية الجمل على القرآن الكريم .

وبعد أن بين - سبحانه - حال الحياة الدنيا ، وقصر مدة التمتع بها ، أتبع ذلك بدعوة الناس جميعاً إلى العمل الصالح الذي يوصلهم إلى الجنة فقال - تعالى - :

وَاللَّهُ يَدْعُوْا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ
لِصِّرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ
وُجُوهُهُمُ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾
الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ مَا لَهُمْ مِّنْ
لَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا
وَلَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾

والمقصود بدار السلام : الجنة التي أعدها الله - تعالى - لعباده المؤمنين .
وسميت بذلك ، لأنها الدار التي سلم أهلها من كل ألم وآفة ، أو لأن تحييتهم
فيها سلام ، أو لأن السلام من أسماء الله - تعالى - فأضيفت إليه تعظيماً لشأنها ،
وتشريفاً لقدرها ، كما يقال للكعبة : بيت الله .

وقوله : « والله يدعو إلى دار السلام ... » ، معطوف على محذوف يدل
عليه السياق .

والتقدير : الشيطان يدعوكم إلى إتيان متاع الحياة الدنيا وزخرفها ، والله
- تعالى - يدعو الناس جميعاً إلى الإيمان الحق الذي يوصلهم إلى دار كرامته .
وقوله : « ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » ، معطوف على ما قبله .
أي : ويهدي من يشاء هدايته إلى الصراط المستقيم ، المؤدي بصاحبه إلى
رضوان الله ومغفرته .

والمراد بالصراط المستقيم : الدين الحق الذي شرعه الله لعباده ، وبلغه لهم
بن طريق نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - .

وقوله : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ... » بيان لحسن عاقبة الذين استجابوا لدعوته ، واتبعوا صراطه المستقيم .

أى : للمؤمنين الصادقين الذين قدموا في دنياهم الأعمال الصالحة ، المنزلة الحسنى ، والمثوبة الحسنى وهى الجنة ، ولهم زيادة على ذلك التفضل من الله تعالى — عليهم بالنظر إلى وجهه الكريم .

وتفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم ، مأثور عن جمع من الصحابة منهم أبو بكر ، وعلى بن أبى طالب ، وابن مسعود ، وأبو موسى الأشعرى وغيرهم — رضى الله عنهم — .

وهستندهم فى ذلك الأحاديث النبوية التى وردت فى هذا الشأن والتى منها ما أخرجه مسلم فى صحيحه عن صهيب — رضى الله عنه — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم — : تلا هذه الآية « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ... » وقال : إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، نادى مناد : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا ، يريد أن ينجزكموه .

فيقولون : ما هو ؟ ألم يثقل موازيننا ، ألم يبيض وجوهنا وبدخلنا الجنة ، ويرزقنا عن النار ؟ قال : فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه ، ولا أقر لأعينهم ، (١) وذكر بعضهم أن المراد بالزيادة هنا : مضاعفة الحسنات بعشر أمثالها أو أكثر ، أو مغفرته — سبحانه — ما فرط منهم فى الدنيا ، ورضوانه عليهم فى الآخرة . والحق أن التفسير الوارد عن الصحابة ، والمؤيد بما جاء فى الأحاديث النبوية هو الواجب الاتباع ، ولا يصح العدول عنه ، ولا مانع من أن يمن الله عليهم بما يمن من مضاعفة الحسنات ومن المغفرة والرضوان ، بعد نظرهم إلى وجهه الكريم ، أو قبل ذلك .

ولذا قال الإمام ابن كثير ماملخصه : قوله « وزيادة » هي تضعيف ثوابه الأعمال .. وأفضل من ذلك النظر إلى وجهه الكريم . فانه زيادة أعظم من جميع ما يعطوه .. وقد روى تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم عن جمع من السلف والخلف ؛ وقد وردت أحاديث كثيرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في ذلك ، ومنها ما رواه ابن جرير عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن الله يبعث يوم القيامة منادياً ينادى بأهل الجنة - بصوت يسمعه أولهم وآخرهم - إن الله وعدكم الحسنى وزيادة - فالحسنى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه الرحمن - عز وجل - ، » .
وعن أبي بن كعب أنه سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن قول الله - تعالى - « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » قال : « الحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الله - تعالى - » (١) .

والمقصود بقوله : « ولا يرهق وجوههم قفراً ولا ذلة » : الإخبار عن خلوص نعيمهم من كل ما يكدر الصفو ، لئلا يبان ما أعطاهم من رضوان .
وقوله : « يرهق » من الرقيق بمعنى الغشيان والتغطية . يقال : رهقه يرهقه رهقاً . - من باب طرب - أى غشيه وغطاه بسرعة .
والقفرة والقفرة : الغبار والدخان الذى فيه سواد ، والذلة : الهوان والصغار . يقال : ذل فلان يذل ذلة وذلاً ، إذا أصابه الصغار والحقارة .
أى ولا يغطى وجوههم يوم القيامة شىء مما يغطى وجوه الكفار ، من السواد والهوان والصغار .

وهذه الجملة بما اشتملت عليه من معانى ، تروى بأن فى يوم القيامة من الزحام والأهوال والسكروب . ما يجعل آثار الحزن أو الفرح ظاهرة على الوجوه والمشاعر ، فهناك وجوه « عليها غبرة ترهقها قفرة » وهناك وجوه « ناضرة إلى ربها ناظرة » .

وقوله : (أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) تذييل قصد به تأكيد
حدسهم ومسرهم .

أى : أولئك المتصفون بتلك الصفات الكريمة هم أصحاب دار السلام ،
وهم خالدون فيها خلودا أبديا ، لا خوف معه ولا زوال .

ثم بين - سبحانه - مصير الظالمين ، بعد أن بين حسن عاقبة المحسنين ،
ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة فقال - تعالى - : **وَالَّذِينَ
كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا ، وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ، مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ،
كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ قُلُوبُهُمْ مِنَ اللَّيْلِ مَظْلَمًا**

أى : إذا كان جزاء الذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، فإن جزاء الذين
اجترحوا السيئات ، واقترفوا الموبقات ، سيئات مثل السيئات التى ارتكبوها
كما قال - تعالى - **وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ، .**

والمقصود أنهم كما كسبوا السيئات فى الدنيا ، فإن الله - تعالى - يجازيهم
عليها فى الآخرة بما يستحقون من عذاب ومصير سى .
وقوله : **وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ، أَى : وَتَغْشَاهُمْ وَتُغْطِيهِمْ ذِلَّةٌ عَظِيمَةٌ ، وَمِهَانَةٌ
شَدِيدَةٌ .** وفى إسناد الرهق إلى أنفسهم دون وجوههم ، إيدان بأنها محبطة
بهم من كل جانب .

وقوله : **مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ، أَى : لَيْسَ لَهُمْ أَحَدٌ يَعْصِمُهُمْ أَوْ يَجِيرُهُمْ
أَوْ يَشْفَعُ لَهُمْ ،** بحيث ينجون من عذاب الله - تعالى -
وقوله : **كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وَجُوهُهُمْ قُلُوبًا مِنَ اللَّيْلِ مَظْلَمًا ،** قصور بديع
للظلام الحسى والمعنوى الذى يبدو على وجوه هؤلاء الظالمين .

أى : كأنما ألبست وجوههم قلوبا من الليل المظلم ، والسواد الحالك ،
حتى صارت شديدة السواد واضحة الكدرة والظلمة .

وقوله : د أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، بيان لسوء عاقبتهم ،
وتعاسة أحوالهم .

أى : أولئك المتصفون بتلك الصفات الذميمة ، أصحاب النار هم فيها
خالدون خلودا أبديا لانهاية له .

وهكذا نرى فى هذه الآيات السكرية تصويرا بديعا لما عليه المؤمنون
الصادقون من صفات حسنة ، ومن جزاء كريم ، يتجلى فى رفع درجاتهم ،
وفى رضا الله - تعالى - عنهم ، كما نرى فيها - أيضا - وصفا معجزا لأحوال
الخارجين عن طاعته ؛ وعن المصير المؤلم ، الذى ينتظرهم يوم القيامة ، د يوم
لا تملك نفس لنفس شيئا ، والأمر يومئذ لله .

ثم حكى - سبحانه - جانباً من الأقوال التى تدور بين المشركين وبين
شركائهم يوم القيامة ، فقال - تعالى - :

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا
ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ
قَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكُنْ بِاللهِ شَهِيدًا
بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ
نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا
يَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾

وقواء : ونحشرهم ، أى نجتمعهم يوم القيامة للحساب ، يقال : حشر القناد
جنده ، إذا جمعهم للحرب أو لأمر من الأمور .
ويوم ظرف زمان منصوب بفعل مقدر .

والمعنى : واذكر أيها الرسول الكريم أو أيها الإنسان العاقل ، يوم نجتمع
الناس كافة ، لنحاسبهم على أعمالهم فى الدنيا .

ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم، أى: ثم نقول للمشركون منهم فى هذا اليوم العصيب، إزموا مكانكم أنتم وشركاؤكم فلا تبرحوه حتى يقضى الله قضاء دفيكم. فقوله: «مكانكم» ظرف مكان منصوب بفعل مقدر. وقوله (شركاؤكم) معطوف على ضمير الفعل المقدر، وقوله (أنتم) تأكيد له. أى قفوا مكانكم أنتم وشركاؤكم.

وجاء العطف بـ ثم، للإشارة إلى أن بين حشرهم وبين ما يقال لهم، مواقف أخرى فيها من الأهوال ما فيها، ثم هنا للتراخى النسبى.

وقال - سبحانه - مكانكم أنتم وشركاؤكم - مع أن المشركون كانوا يعتبرون معبوداتهم شركاء لله - من باب التهمك بهم. والإشارة إلى أن ما عبدوهم لم يكونوا فى يوم من الأيام شركاء لله، وإنما المشركون هم الذين وصفوهم بذلك افتراء وكذبا.

وجاء وصفهم بالشرك فى حيز الصلة، للإيدان بأنه أكبر جناياتهم؛ وأن شركهم بالله - تعالى - هو الذى أدى بهم إلى هذا المصير المؤلم.

وقوله: (فزبلنا بينهم) أى: ففرقنا بينهم، وقطعنا ما بينهم من صلوات، وميزنا بعضهم عن بعض كما يميز بين الخصوم عند التقاضى والمساءلة.

وزبلنا: من التزويل بمعنى التمييز والتفريق. يقال: زيلت الشيء أزيله إذا نحيت وأبعدته، ومنه قوله - تعالى - (لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما (١)) أى: لو تميزوا وتفرقوا.

وعبر بالفاء للدلالة على أن هذا التفريق والتمييز؛ قد حدث عقب الخطاب من غير مهلة. وجاء الأسلوب بصيغة الماضى مع أن هذا التزويل سيكون فى الآخرة، الإيدان بتحقيق الوقوع، وإلى زيادة التوبيخ والتحسير لهم. وقوله: (وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون) معطوف على ما قبله.

والمراد بالشركاء : كل ما عبد من دون الله من إنس وجن وأوثان وغير ذلك .

أى : وقال شركاؤهم الذين أشركوهم فى العبادة مع الله - تعالى - : إنكم أيها المشركون لم تكوّنوا لنا عابدين فى الدنيا ، وإنما كنتم تعبدون أشياء أخرى زينها الشيطان لكم ؛ فأنقذتم له بدون تدبر أو تعقل .
والمقصود بقولهم هذا النبىء من المشركين ، وتوبيخهم على إفكارهم الفاسدة .

وقوله : فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين ، تأكيد لهذا النبىء والإنكار ، ورجوع إلى الشهادة الحق فى ذلك .

و د إن ، فى قوله د إن كنا ، مخففة من الثقيلة .. أى : فكفى أن يكون الله - تعالى - شهيدا وحكما بيننا وبينكم ، فهو - سبحانه - يعلم حالنا وحالكم ، ويعلم أننا كنا فى غفلة عن عبادتكم لنا ، بحيث إننا ما فكرنا فيها ولا رضىنا بها .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة ببيان أحوال الناس فى هذا اليوم العظيم فقال : هنالك قبلو كل نفس ما أسلفت ، وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون .

أى : هنالك فى ذلك الموقف الهائل الشديد ، تختبر كل نفس مؤمنة أو كافرة ، ما سلفت منها من أعمال ، فترى ما كان نافعا أو ضارا من هذه الأعمال ، وترى الجزاء المناسب عن كل عمل بعد أن عاد الجميع إلى الله مولاهم الحق ، ليقتضى بينهم بقضائه العادل ، وقد غاب عن المشركين فى هذا الموقف ما كانوا يفترونه من أن هناك آلهة أخرى ستشفع لهم يوم القيامة .

وهكذا نرى الآيات الكريمة تصور أحوال الناس يوم الدين تصويرا

جليغا مؤثرا ، يتجلى فيه موقف الشركاء من عابديهم ، وموقف كل إنسان من عمله الذى أسلفه فى الدنيا .

وبعد هذا الحديث المعجز عن يوم الحشر وأهواله ، ساقى السورة الكريمة بضع آيات فيها الأدلة المقنعة على وحدانية الله وقدرته ، ولكن بأسلوب السؤال والجواب ، فقال — تعالى — :

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ بِمَلِكِ
السَّمْعِ وَالْأَبْصَرِ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ
مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾
قَدْ لَكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى
تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين : من الذى يرزقكم من السماء بالأمطار وما يتولد عنها ، ومن الأرض وما يخرج منها من نباتات وأشجار ، وغير ذلك مما تخرجه الأرض .

وقوله : أم من يملك السمع والأبصار ، أى : بل قل لهم - أيضا - من الذى - يملك ما تتمتعون به من سمع وبصر ، ومن الذى يستطيع خلقهما وتسويتهما بالطريقة التى أوجدها - سبحانه - .

وخص هاتين الخاصتين بالذكر ، لأن لهما أعظم الأثر فى حياة الإنسان ، ولأنهما قد اشتملتا فى تركيبهما على ما يبههر العقول ، ويشهد بقدرته - تعالى - وعجيب صنعه فى خلقه .

و د أم ، هنا منقطعة بمعنى بل ، وهى هنا للإضراب الانتقالي لا الإبطالى ،

وفيه تنبيه على كفاية هذا الاستفهام في الدلالة على المقصود ، وهو إثبات قدرة الله - تعالى - ووجوب إخلاص العبادة له .

وقوله : « ومن يخرج الحى من الميت ويرج الميت من الحى ، دليل ثالث على قدرة الله ووحدايته . »

أى : « قل لهم كذلك من سوى الله - تعالى - يملك إخراج النبات وهو كائن حى من الأرض الميتة ، وإخراج الإنسان وهو كائن حى من النطفة وبالعكس ، وإخراج الطير من البيضة وبالعكس . »

وقوله : « ومن يدبر الأمر ، دليل رابع على قدرة الله ووحدايته . أى : « قل لهم - أيضاً - من الذى يتولى تدبير أمر هذا الكون من إحياء وإماتة ، وصحة ومرض ، وغنى وفقر ، وليل ونهار ، وشمس وقمر ونجوم ... »

هذه الجملة الكريمة من باب التعميم بعد التخصيص ، لأن كل ما سبق من نعم يندرج فيها .

وقوله : « فسيقولون الله ، حكاية للجواب الذى لا يستطيعون إنكاره ، لأنهم مقرون معترفون بأن الله - تعالى - هو الذى خلقهم ، وهو الذى يدبر أمرهم ، وإنما كانوا يتخذون الشركاء لزانى ، كما حكى القرآن عنهم فى قوله : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله .. » وفى قوله - سبحانه - حكاية عنهم « ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ... » ،

ولفظ الجلالة مبتدأ ، والخبر محذوف والتقدير : فسيقولون الله وحده هو الذى فعل كل ذلك .

وقوله : « فقل أفلا تتقون ، أمر من الله - تعالى - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - بأن يرد عليهم بهذا الرد .

والهمزة لإنكار واقعهم الذميمة ، وهى داخلة على كلام مقدر ، ومفعول « تتقون محذوف . »

أى : أنعلمون وتعترفون بأن الله - تعالى - هو الخالق لكل ماسبق، ومع ذلك تشركون معه آلهة فى العبادة : دون أن تتقوا عذابه يوم القيامة ؟ إن مسلككم هذا إنما يدل على ضعف فى التفكير ، وانطماس فى العقول . وجهالة ليس بعدها جهالة .

ثم أرشدكم - سبحانه - إلى الطريق القويم لو كانوا يعقلون فقال : فذلكم الله ربكم الحق

أى : فذلكم الذى فعل ما فعل من رزقكم ومن تدبير أمركم ، هو الله المربى لكم بنعمه ، وهو الذى لا تحق العبودية والالوهية إلا له وحده . إذا كان الأمر كذلك ، فإذا بعد الحق إلا الضلال ، أى : لا يوجد غير الحق شىء . يتبع سوى الضلال ، فمن ترك الحق وهو عبادة الله وحده ، فقد وقع فى الباطل والضلال وهو عبادة غيره من الآلهة الأخرى .

قال القرطبي : ثبت عن عائشة - رضى الله عنها - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل قال : « اللهم لك الحمد ، الحديث ، وفيه : أنت الحق ، ووعدك الحق ، وقولك الحق ، ولقاؤك الحق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق »

فقوله : أنت الحق ، أى الواجب الوجود ، وأصله من حق الشىء إذا ثبت ووجب . وهذا الوصف لله - تعالى - بالحققة ، إذ وجوده بنفسه لم يسبقه عدم ولا يلحقه عدم ، وما عداه مما يقال عليه هذا الاسم مسبق بعدم ، ويجوز عليه لحاق العدم ، ووجوده من موجد له لا من نفسه .

ومقابلة الحق بالضلال عرف لغة وشرعاً كما فى هذه الآية . . . والضلال حقيقة الذهاب عن الحق مأخوذ من ضلال الطريق ، وهو العدول عن سبيله . يقال ضل الطريق وأضل الشىء إذا أضاعه . . . (١) .

وقوله : فأتى تصرفون ، أى : فكيف تصرفون وتتحولون عن الحق إلى الضلال ، بعد اعترافكم وإقراركم بأن خالقكم ورازقكم ومدبر أمركم هو الله — تعالى — وحده .

فأتى هنا بمعنى كيف ، والاستفهام لإنكار واقعهم المخزى واستبعاده التعجب منه .

ومن الأحكام التى تؤخذ من هذه الآية الكريمة أن الحق والباطل ، الهدى والضلال ، نقيضان لا يجتمعان ، لأن النقيضين يمتنع أن يكونا نقيين وأن يكونا باطلين فى وقت واحد متى ثبت أن أحدهما هو الحق ، جب أن يكون الآخر هو الباطل .

ثم بين - سبحانه - سنة من سننه التى لا تتخلف ولا تبدل . فقال - تعالى - :

« كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون » .

والكاف للتشبيه بمعنى مثل . وحقت بمعنى وجبت وثبتت .

والمراد بالكلمة هنا : حكمه وقضاؤه - سبحانه - .

والمعنى : مثل ما ثبت أن الله - تعالى - هو الرب الحق ، وأنه ليس بعد الحق الضلال ، ثبت - أيضا - الحكم والقضاء منه - سبحانه - على الذين فسقوا ، أمره ، وعمروا وصموا عن الحق ، أنهم لا يؤمنون به ، لأنهم إن يروا بيل الرشداً لا يتخذوه سبيلاً ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلاً .

فالمراد بالفسق هنا : التمرد فى الكفر ، والسير فيه إلى أقصى حدوده .

ثم ساق - سبحانه - أنواعاً أخرى من الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته . فقال :

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ
 قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۖ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ
 مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ
 يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ قَبَا
 لَكَ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا
 يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

أى : قل يا محمد لهؤلاء الغافلين عن الحق: هل من شركائكم الذين عبدتموهم
 من دون الله ، أو أشركتموهم مع الله ، من له القدرة على أن يبدأ خلق الإنسان
 من نطفة ، ثم من علقه ، ثم من مضغه . . . ثم ينشئه خلقاً آخر ، ثم يعيده
 إلى الحياة مرة أخرى بعد موته ؟

قل لهم يا محمد : الله وحده هو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، أما شركاؤكم
 فهم أعجز من أن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له . . .
 وإذا كان الأمر كذلك من الواضح والظهور ، فأنت تؤفكون ، والأفك
 الصرف والقلب عن الشيء . يقال : أفكك عن الشيء . يأفكك أفكاً : إذا قلبه
 عنه وصرفه .

أى : فكيف ساغ لكم أن تصرفوا عقولكم عن عبادة الإله الحق ، إلى
 عبادة أصنام لا تنفع ولا تضر . ١٦

وجاءت جملة (قل هل من شركائكم...) بدون حرف العطف على ما قبلها
 للإيذان باستقلالها فى حصول المطلوب ، وإثبات المقصود .

وساق - سبحانه - الأدلة بأسلوب السؤال والاستفهام ، لأن الكلام إذا
 كان واضحاً جلياً ثم ذكر على سبيل الاستفهام ، وتفويض الجواب إلى المستول
 كان ذلك أبلغ وأقنع . ١٧

وجعل - سبحانه - إعادة المخلوقات بعد موتها حجة عليهم في التدليل على ربه مع عدم اعترافهم بها ، إلا إذا ان بسطوع أدلتها ، لأن القادر على البدء - ر - على الإعادة كما قال - تعالى - (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده يو أهون عليه . . .) (١) .

فلما كان إنكارهم لهذه الحقيقة الواضحة من باب العناد والمكابرة ، نزل كآرامهم لها منزلة العدم .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشف بقوله : فإن قلت : كيف قيل لهم هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده (وهم غير معترفين بالإعادة ؟

قلت : قد وضعت إعادة الخلق لظهور برهانها موضع ما إن دفعه دافع من مكابر أراداً للظاهر البين الذي لا مدخل للشبهة فيه ، ودلالة على أنهم في كآرامهم لها منكرون أمراً مسلماً معترفاً بصحته عند العقلاء . وقال لنبيه - لي الله عليه وسلم - : قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده (فأمره بأن ينوب عنهم جواب . يعنى أنه لا يدعمهم لجأهم ومكابرتهم أن ينطقوا بكلمة الحق فتكلمت عنهم) (٢) .

وقوله : (قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق .) حجة أخرى تدفع جهلهم ، جىء بها لتكون دليلاً على قدرة الله على الهداية لاضلال ، عقب إقامة الأدلة على قدرته - سبحانه - على بدء الخلق إعادتهم .

أى : قل لهم يا محمد - أيضاً - على سبيل التهكم من أفكارهم : هل من شركائكم من يستطيع أن يهدي غيره إلى الدين الحق ، فينزل كتاباً ، يرسل رسولا ، أو يشرع شريعة ، أو يضع نظاماً دقيقاً لهذا الكون ، يحث العقول على التدبر والتفكير في ملكوت السموات والأرض... ؟

قل لهم يا محمد : الله وحده هو الذى يفعل كل ذلك ، أما شركاؤكم فلا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً من ذلك أو من غيره .

وقوله : « أفن يهذى إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهذى إلا أن يهذى ... » ، توبيخ آخر لهم على جهالاتهم وغفلتهم عن إدراك الأمور الواضحة .

أى : قل لهم يا محمد : أفن يهذى غيره إلى الحق وهو الله - تعالى - . أحق أن يتبع فيما يأمر به وينهى عنه ، أم من لا يستطيع أن يهتدى بنفسه إلا أن يهديه غيره أحق بالاتباع ؟ لا شك أن الذى يهذى غيره إلى الحق أحق بالاتباع من الذى هو فى حاجة إلى أن يهديه غيره .

وقوله . « فما لكم كيف تحكمون » استفهام قصد به التعجيب من أحوالهم التى تدعو إلى الدهشة والغرابة .

أى : ما الذى وقع لـكم ، وما الذى أصابكم فى عقولكم حتى صرتم تشركون فى العبادة مع الله الخالق الهادى ، مخلوقات لا تهتدى بنفسها وإنما هى فى حاجة إلى من يخلقها ويهدها .

قال الإمام الرازى : واعلم أن الاستدلال على وجود الصانع بالخلق أولاً ثم بالهداية ثانياً ، عادة مطردة فى القرآن ، فقد حكى - سبحانه - عن إبراهيم أنه ذكر ذلك فقال : « الذى خلقنى فهو يهدين ، وعن موسى أنه قال : « ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، وأمر محمدآ - صلى الله عليه وسلم - بذلك فقال : « سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى .. » ، وهو فى الحقيقة دليل شريف ؛ لأن الإنسان له جسده وله روح ، فلا استدلال على وجود الصانع بأحوال الجسد هو الخلق ، والاستدلال بأحوال الروح هو الهداية ، فهاتان أيضاً لما ذكر دليل الخلق فى الآية الأولى وهو قوله : « أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ، أتبعه بدليل الهداية فى هذه الآية (١) .

وقوله : « أم من لا يهدي ، ورد فيه ست قراءات ، منها قراءة يعقوب وحفص بكسر الهاء وتشديد الدال ، ومنها قراءة حمزة والكسائي بالتخفيف كيرى ، ومنها قراءة ابن كثير وابن عامر وورش عن نافع « يهدى ، فتح الياء والهاء وتشديد الدال . . (١) » .

والاستثناء في قوله : « أم من لا يهدي إلا أن يهدي » مفرغ من أهم الأحوال .

والتقدير : أفن يهدي إلى الحق أحق بالاتباع أم من لا يستطيع الهداية إلا أن يهديه إليها غيره أحق بالاتباع ؟

وجاء قوله — سبحانه — « فما لكم كيف تحكمون » باستفهامين متواليين ، زيادة في توبيخهم وتقريرهم ، ولفت أنظارهم إلى الحق الواضح الذي لا يخفى على كل ذى عقل سليم .

وقوله : « وما يتبع أكثرهم إلا ظناً . . . » توبيخ آخر لهم على انقيادهم للأوهام والظنون ، وقسوية للرسول — صلى الله عليه وسلم — عما أصابه منهم من إساءات .

أى أن هؤلاء الذين أعرضوا عن دعوتك يا محمد ، لا يتبعون في عقائدهم وعبادتهم لغير خالقهم سوى الظنون والأوهام التى ورثها الأبناء عن الآباء .

وخص أكثرهم بالذكر ؛ لأن هناك قلة منهم يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم ، واسكنهم لا يتبعونه عناداً وجحوداً وحسداً ، كما قال — تعالى — « فإهم لا يكذبونك واسكن الظالمين بآيات الله يحدون » ، (٢) .

(١) راجع تفسير القرطبي ج ٨ ص ٣٤١

(٢) سورة الأنعام الآية ٣٣

ويجوز أن يكون — سبحانه — خص أكثرهم بالذكر ، الإشارة إلى أن هناك قلة منهم تعرف الحق ، وستتبعه فى الوقت الذى يريده الله — تعالى — .
 والتنكير فى قوله « ظنا » للتنويع . أى لا يتبع أكثرهم إلا فوعا من الظن الواهى الذى لا يستند إلى دليل أو برهان .
 وقوله : (إن الظن لا يغنى من الحق شيئا) استئناف مسوق لبيان شأن الظن وبطلانه .

والمراد بالظن هنا ما يخالف العلم واليقين . والمراد بالحق : العلم والاعتقاد الصحيح المطابق للواقع .

أى : إن الظن الفاسد المبني على الآوهام لا يغنى صاحبه شيئا من الأغناء ، عن الحق الثابت الذى لا ريب فى ثبوته وصحته .

وقوله (شيئا) مفعول مطلق . أى : لا يغنى شيئا من الأغناء . ويجوز أن يكون مفعولا به على جعل يغنى بمعنى يدفع .

وقوله : (إن الله عليم بما يفعلون) تذييل قصد به التهديد والوعيد .

أى : إن الله — تعالى — عليم بأقوالهم وأفعالهم ، وسيحاسنهم عليهم يوم القيامة ، وسينالون ما يستحقونه من عقاب بسبب أقوالهم الباطلة ، وأفعالهم الفاسدة .

قال صاحب المنار ما ملخصه : استدل العلماء بهذه الآية على أن العلم اليقيني واجب فى الاعتقادات ، ويدخل فى الاعتقادات الإيمان بأركان الإسلام وغيرها من الفرائض والواجبات القطعية ، والإيمان بتحريم المحظورات القطعية كذلك . . .

أما مادون العلم اليقيني مما لا يفيد إلا الظن فلا يؤخذ به فى الاعتقاد ، وهو متروك الاجتهاد فى الأعمال كاجتهاد الأفراد فى الأعمال الشخصية ،

واجتهاد أولى الأمر في الإدارة والسياسة ، مع التقيد بالشورى وتحرى العدل ... (١) .

وبعد أن سافت السورة الكريمة ألوانا من البراهين الدالة على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله تعالى ... عادت السورة الكريمة إلى الحديث عن القرآن الكريم ، فتحدث أعداءه أن يأتوا بسورة مثله ، ووصفتهم بالجهالة وسفاهة الرأي ، وصورت أحوالهم ومواقفهم من دعوة الحق تصويرا بليغا . استمع إلى السورة الكريمة وهى تتحدث عن كل ذلك فتقول :

وَمَا كَانَ

هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مِنْ أَبْسَطِعُمْ مَنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾

وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ ۖ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤١﴾ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيْعُونَ مِمَّا آعَمَلُ وَأَنَا بَرِيْعٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴿٤٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْعًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٥﴾

قال الإمام ابن كثير : هذا بيان لإعجاز القرآن ، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله ، ولا بعشر سور ولا بسورة من مثله ؛ لأنه بفصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته واشتماله على المعاني الغزيرة النافعة في الدنيا والآخرة ، لا يكون إلا من عند الله - تعالى - الذى لا يشبهه شيء في ذاته ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ولا في أقواله ، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين ، ولهذا قال - تعالى - : وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ، (١) .

والنفي هنا للشأن الذى هو أبلغ في النفي ، وأعمق في الدلالة على أن هذا القرآن من عند الله ، من نفي الشيء في ذاته مباشرة .
أى : وليس من شأن هذا القرآن المعجز ، أن يخترعه أو يخترقه أحد من الإنس أو الجن أو غيرهما ؛ لأن ما شتمل عليه من إعجاز وبلاغة وتشريعات حكيمة ، وآداب قريمة ، وهدايات جامعة . . . يشهد بأنه من كلام خالق القوى والقدر .

وقوله : ولاكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب ، بيان

لكمال هداية القرآن الكريم ، وهيمنته على الكتب السماوية السابقة .
والمراد بالذي بين يديه : الكتب السابقة على القرآن كالتوراة والإنجيل والزبور .
وقوله « بين يديه » فيه نوع مجاز ؛ لأن ما بين يدي الشيء يكون أمامه ، فوصف
- سبحانه - ما مضى من الكتب بأنها بين يدي القرآن لشدة ظهورها واشتهارها .
ومعنى تصديق القرآن للكتب السابقة : تأييده لما اشتملت عليه من دعوة إلى وحدانية
الله - تعالى - ، ومن أمر بإتباع الرسول - صلى الله عليه وسلم - عند ظهوره .
وأل في الكتاب ، للجنس . فالمراد به جنس الكتب السماوية التي أنزلها
- سبحانه - على بعض أنبيائه .

والمعنى : ليس من شأن هذا الكتاب في إعجازه وهدايته أن يكون من
عند غير الله ، لأن غيره - سبحانه - لا يقدر على ذلك ، ولكن من شأنه أن
يكون مؤيداً للكتب السماوية السابقة فيما دعت إليه من إخلاص العبودية
لله - تعالى - ، ومن اتباع لرسوله ، وأن يكون مفصلاً وموضحاً لما اشتملت
عليه هذه الكتب من تشريعات وآداب وأحكام .

وقوله « تصديق » منصوب على أنه معطوف على خبر كان ، أو على أنه
خبر لكان المقدرة أي : ولكن كان تصديق . . .

وقوله « لا ريب فيه » من رب العالمين ، بيان لمصدره .

أي : هذا الكتاب لا ريب ولا شك في كونه منزلاً على رسوله محمد -
صلى الله عليه وسلم - من الله - تعالى - رب العالمين .

وفصلت جملة « لا ريب فيه » عما قبلها لأنها مؤكدة له ، ومقررة لمضمونه .

ونفى - سبحانه - عن القرآن الريب على سبيل الاستغراق : مع وقوع
الريب فيه من المشركين ، حيث وصفوه بأنه أساطير الأولين ؛ لأنه لروعة
بيانه ، وسطوع حجته ، ووضوح دلائله ، لا يرتاب ذو عقل متدبر في كونه
وحياً سماوياً ، ومصدر هداية وإصلاح .

فجملة « لا ريب فيه » تنفي الريب في القرآن عن شأنهم أن يتدبروه ،
ويقبلوا على النظر فيه بروية ، ومن ارتاب فيه فلأنه لم يقبل عليه بأذن
واعية ، أو بصيرة نافذة ، أو قلب سليم .

وقوله - سبحانه - : أم يقولون افتراه ، إنتقال من بيان كون القرآن من عند الله ، إلى بيان مزاعمهم فيه .

وأم هنا منقطعة بمعنى بل والهمزة للاستفهام ، أى : بل يقولون إن محمداً - صلى الله عليه وسلم - هو الذى أتى بهذا القرآن من عند نفسه لا من عند الله .

وقوله : د قل فأتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله ... أمر من الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - بأن يرد عليهم بما يكتبهم ويخرس ألسنتهم .

أى : قل لهم يا محمد على سبيل التبكيت والتحدى : إن كان الأمر كما زعمتم من أنى أنا الذى اختلقت هذا القرآن ، فأتوا أنتم بأفصحاء العرب بسورة مثل سورة فى البلاغة والهداية وقوة التأثير ، وقد أبحث لكم مع ذلك أن تدعوا للمعاونة وتمساعدتكم فى بلوغ غايتكم كل من تستطيعون دعوته سوى الله - تعالى - .

وجاءت كلمة سورة ، منكبة ، للإشارة إلى أنه لا يباطلهم بسورة معينة ، وإنما أباح لهم أن يأتوا بأية سورة من مثل سور القرآن ، حتى ولو كانت كأصغر سورة منه .

والضمير فى د مثله ، يعود إلى القرآن الكريم ، والمراد بمثله هنا : ما يشابهه فى حسن النظم ، وجمال الأسلوب ، وسداد المعنى ، وقوة التأثير .. وقوله : د وادعوا ، من الدعاء . والمراد به هنا : طلب حضور المدعو أى : نادوهم .

وكلمة من فى قوله د من استطعتم ، تشمل آلهتهم وبلغاءهم وشعراءهم ، وكل من يتوسمون فيه العون والمساعدة .

وكلمة دون هنا بمعنى غير أى : ادعوا لمساعدةكم كل من تستطيعون دعوته غير الله - تعالى - فإنه وحده القادر على أن يأتى بمثله .

وقوله : د إن كنتم صادقين ، جملة شرطية ، وجوابها محذوف لدلالة

الكلام السابق عليه ، أى : إن كنتم صادقين فى دعواكم أنى افتريت هذه القرآن ، فها ترا سورة مثله مفتراة ، فإنكم مثلى فى العربية والفصاحة .

فأنت قرى أن الآية الكريمة قد تحدثهم وأثارت حماسهم ، وأرخت لهم الحبل ، وعرضت بعدم صدقهم ، حتى تتوفر دواعيهم على المعارضة التى زعموا أنهم أهل لها .

قال الألوسى : هذه الآية دلالة على إعجاز القرآن ؛ لأنه - صلى الله عليه وسلم - تحدى مصارع العرب بسورة مأمنه ، فلم يأتوا بذلك ، وإلا فلو أتوا بذلك لنقل إلينا ، لتوفر الدواعى على نقله ، (١) .

هذا وقد عقد صاحب الظلال فصلاً طويلاً للحديث عن إعجاز القرآن فقال : « وقد ثبت هذا التحدى ، وثبت العجز عنه . وما يزال ثابتاً ولن يزال ، الذين يدركون بلاغة هذه اللغة ، ويتذوقون الجمال الفنى والتناسق فيها ، يدركون أن هذا النسق من القول لا يستطيعه إنسان ، وكذلك الذين يدرسون النظم الاجتماعية ، والأصول التشريعية ، ويدرسون النظام الذى جاء به هذا القرآن ، يدركون أن النظرة فيه إلى تنظيم الجماعة الإنسانية ومقتضيات حياتها من جميع جوانبها ، والفرص المدخرة فيها لمواجهة الأطوار والتقلبات فى يسر ومرونة . كل أولئك أكبر من أن يحيط به عقل بشرى واحد ، أو مجموعة من العقول فى جيل واحد أو فى جميع الأجيال . ومشاهم الذين يدرسون النفس الإنسانية ووسائل الوصول إلى التأثير فيها وتوجيهها ، ثم يدرسون وسائل القرآن وأساليبه .

فليس هو إعجاز اللفظ والتعبير وأسلوب الأداء وحده ، ولكنه الإعجاز المطلق الذى يلمسه الخبراء فى هذا وفى النظم والتشريعات والنفسيات وما إليها (٢) .

(١) تفسير الألوسى ج ١١ ص ١١٩

(٢) راجع تفسير فى ظلال القرآن ج ١١ ص ١٧٨ وما بعدها مطبعة دار الشروق .

ثم انتقلت السورة الكريمة من توبيخهم على كذبهم وجحودهم ، إلى توبيخهم على جهلهم وغباوتهم فقال - تعالى - : د بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله

أى : أن هؤلاء الأشقياء لم يكتفوا بما قالوه فى شأن القرآن الكريم من أقاويل فاسدة ، بل هرولوا إلى التكذيب ما فيه من هدايات سامية ، وآداب عالية ، وأخبار صادقة ، بدون فهم أو تدبر ، وبدون انتظار لتفسير معانيه وأخباره التى لم يهتدوا إلى معرفتها بعد .

قال صاحب الكشف قوله : د بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ، أى : بل سارعوا إلى التكذيب بالقرآن قبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره ، وقبل أن يتدبروه ويقفوا على تأويله ومعانيه ، وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم ، وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم ، كالنا شىء على التقليد من الحشوية ، إذا أحس بكلمة لا توافق ما نشأ عليه وألفه ، وإن كانت أضوا من الشمس فى ظهور الصحة وبيان الاستقامة أنكراها فى أول وهلة ، واشماز منها قبل أن يحسن إدراكها بحاسة سمعه من غير فكر فى صحة أو فساد ، لأنه لم يشعر قلبه إلا صحة مذهبه ، وفساد ما عداه من المذاهب .

فإن قلت : فما معنى التوقع فى قوله : ولما يأتهم تأويله ؟ قلت : معناه أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ومعرفة التأويل ، تقليدا للآباء ، وكذبوه بعد التدبر تمردا وعنادا فدهمهم بالتسرع إلى التكذيب قبل العلم به .

ويجوز أن يكون معنى د ولما يأتهم تأويله د ولم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الأخبار بالغيوب ، يعنى أنه كتاب معجز من جهتين : من جهة إعجاز نظمه ، ومن جهة ما فيه من الأخبار بالغيوب ، فتسرعوا إلى التكذيب به قبل أن ينظروا فى نظمه وبلوغه حد الإعجاز ، وقبل أن يخبروا لإخباره بالمغيبات

وصدقه وكذبه ، (١) .

وقال الألوسي : وعبر - سبحانه - بقوله : « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، دون أن يقال : بل كذبوا به من غير أن يحيطوا بعلمه أو نحوه ، الإيدان بكمال جهلهم به . وأنهم لم يعلموه إلا بعنوان عدم العلم به ، وبأن تكذيبهم به إنما هو بسبب عدم إحاطتهم بعلمه ، لما أن تعليق الحكم بالوصول مشعر بعلمية ما في حيز الصلة له . وأصل الكلام بما لم يحيطوا به علما ، إلا أنه عدل عنه إلى ما في النظم الكريم لأنه أبلغ .

ونفي إتيان التأويل بكلمة « لما » الدالة على توقع منفيها بعد نفي الإحاطة بعلمه بكلمة « لم » ، لتأكيد الذم ، وتشديد التشنيع ، فإن الشناعة في تكذيب الشيء ، قبل علمه المتوقع لإتيانه أفحش منها في تكذيبه قبل علمه مطلقا ، (٢) .

وقوله « كذلك كذب الذين من قبلهم » فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ، تهديد لهم ووعيد على التماس في العناد .

أى : كما كذب المشركون نبيهم محمدا - صلى الله عليه وسلم - عن جهل وجحود ، كذب الذين من قبلهم أنبياءهم ، كقوم نوح وعاد وثمود ، فكانت نتيجة هذا التكذيب أن أخذهم الله - تعالى - أخذ عزيز مقتدر .

قال - تعالى - : « فكللا أخذنا بذنبيه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض » ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، (٣) .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٢٨ .

(٢) تفسير الألوسي ج ١١ ص ١٢٠ .

(٣) سورة العنكبوت الآية ٤٠ .

ثم فصل - سبحانه - أحوالهم ومواقفهم من القرآن الكريم فقال :

« ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به ، وربك أعلم بالمفسدين ، » .

أى : ومن هؤلاء الذين بعثت إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ، ويتبعك

ويقتفع بما أرسلت به ، ومنهم من لا يؤمن به أبدا لاستنجا به العمى على الهدى .

وعليه يكون المراد بمن يؤمن به ، أولئك الذين وفقهم الله لاتباع الحق

عن يقين وإذعان .

وقيل إن المعنى : ومن قومك يا محمد أناس يؤمنون في قرارة نفوسهم بأن

هذا القرآن من عند الله ، ولكنهم يكذبونك جحودا وعنادا ، ومنهم من

لا يؤمن به أصلا لانظماس بصيرته ، وإيثاره الغى على الرشد .

وعلى هذا التفسير يكون المراد بمن يؤمن به : أولئك الذين يعرفون

الحق كما يعرفون أبناءهم . ولكن الغرور والجهل والحسد حال بينهم

وبين اتباعه .

وقوله : « وربك أعلم بالمفسدين ، أى : وربك أعلم بالمفسدين فى الأرض

بالشرك والظلم والفجور ، وسيحاسبهم على ذلك يوم الدين حسابا عسيرا ،

ويذيقهم العذاب الذى يستحقونه . فالمراد بالعلم هنا لازمه وهو الحساب

والعقاب .

وقوله : « وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم ، أنتم بريئون مما أعمل

وأنا برىء مما تعملون ، إرشاد من الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه

وسلم - إذا مالج أعداؤه فى طغيانهم .

أى : وإن تمادى هؤلاء الأشرار فى طغيانهم وفى تكذيبهم لك يا محمد ،

« فقل لهم : أنا مسئول عن عملى أمام الله ، وأنتم مسئولون عن أعمالكم أمامه

- سبحانه - ، وأنتم بريئون مما أعمله فلا تؤاخذوني عليه ، وأنا بريء كذلك من أعمالكم فلا يؤاخذني الله عليها .

فآية الكريمة تسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من قومه - وإعلام له بأن وظيفته البلاغ ، أما حسابهم على أعمالهم فعلى الله - تعالى - . ثم صور - سبحانه - ما عليه أولئك الجاحدون من جهالات مطبقة ، وغباء مستحكم فقال - تعالى - : « ومنهم من يستمعون إليك أفانت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون . ومنهم من ينظر إليك أفانت تهدي العمى ولو كانوا لا يبصرون .

أى : ومن هؤلاء المشركين - يا محمد - من يستمعون إليك وأنت تقر عليهم القرآن وترشدهم إلى ما ينفعهم ، ولكنهم يستمعون بلا تدبر - أو فهم ، فهل أنت - يا محمد - فى إمكانك أن تسمع الصم ، ولوا انضم إلى صممهم عدم تفكيرهم ، لأن الأصم العاقل - كما يقول صاحب الكشف - ربما تفرس واستدل إذا وقع فى صمائه دوى الصوت ، فإذا اجتمع سلب السمع والعقل جميعا فقد تم الأمر .

ومنهم - أيضاً - من ينظر إليك ، ويشاهد البراهين الدالة على صدقك ، فإن وجهك ليس بوجه كذاب ، ولكنه لا يتبع دعوتك جحودا وعنادا ، فهل أنت فى إمكانك أن تهدي العمى ولو انضم إلى فقدان بصرهم فقدان بصيرتهم . فأنت ترى أن هاتين الآيتين الكريمتين قد نعنا على المشركين جهالاتهم ، وانطاماس بصيرتهم ، بحيث صاروا لا ينتفعون بنعم الله التى أنعم بها عليهم .

فقد وصمهم - سبحانه - بفقدان السمع والبصر والعقل ، مع أنهم يسمعون ويبصرون ويعقلون ، لأنهم لما لم يعملوا نعم الله فيما خلقت له ، صارت هى والعدم سواء .

والاستفهام فى الآيتين للإنكار والاستبعاد .

وجوابه لو ، فى الآيتين عذوف لدلالة ما قبله عليه ، والجملة معطوفة على جملة مقدرة بمقابلة لها . أى : أفأنت تسمع الصم لو كانوا يعقلون ولو كانوا لا يعقلون ، على معنى أفأنت تستطيع إسماعهم فى الحالتين ؟ كلا لا تستطيع ذلك وإنما القادر على ذلك هو الله وحده .

ثم بين - سبحانه - سنة من سننه التى لا تتخلف فقال : وإن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

أى : إن الله - تعالى - قد اقتضت سننه فى خلقه ، أن لا يظلمهم شيئا ، كأن يعذبهم - مثلا - مع إيمانهم وطاعتهم له ، أو كأن ينقصهم شيئا من الأسباب التى يهتدون باستعمالها إلى ما فيه خيرهم ... ولكن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم ، بإيرادها موارد الممالك ، على طريق اجتراح السيئات ، واقتراف الموبقات ، الموجبة للعقوبات فى الدنيا والآخرة .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد نفتت تصور أن يكون هذا القرآن من عند غير الله ، وتحدث المشركون أن يأتوا بسورة مثله ، ووصحتهم بالتسرع فى الحكم على شئ لم يحيطوا بعلمه ، وأمرت النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يثبت على دعوة الحق ، سواء استجاب له الناس أم لم يستجيبوا ، وأن الله - تعالى - قد اقتضت حكمته ألا يعذب الناس إلا إذا فعلوا ما يوجب العقوبة ، وصدق الله إذ يقول : ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما .

وبعد أن بينت السورة الكريمة أحوال أولئك المشركين فى الدنيا ، ومواقفهم من الدعوة الإسلامية ، أتبع ذلك بالحديث عن أحوالهم يوم الحشر ، وعن استعجالهم للعذاب ، وعن رد الرسول - صلى الله عليه وسلم - عليهم ، فقال - تعالى - :

وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ
 النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَكَانُوا
 مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِنَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّئَنَّكَ فِي السَّيِّئَةِ
 مَرَّجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ
 فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾
 وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ
 لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ
 فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾

وقوله - سبحانه - : « ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار
 يتعارفون بينهم » بيان لأحوالهم السيئة عند جمعهم للحساب يوم القيامة .
 إذ الحشر - كما يقول الراغب - إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم
 عنه إلى الحرب ونحوها ، (١) .

والمراد به هنا : إخراج الناس من قبورهم وجمعهم في الموقف لحسابهم
 على أعمالهم الدنيوية .

والمقصود بالساعة هنا : المدة القليلة من الزمان ، فقد جرت العادة أن
 يضرب بها المثل في الوقت القصير .

والمعنى : واذكر أيها الرسول الكريم ، وذكروا هؤلاء المشركين الذين
 عموا وصموا عن الحق ، يوم يجمعهم الله - في الآخرة للحساب والعقاب ،
 فيشتد كربهم ، وينسون تلك الملذات والشهوات ... التي استمتعوا بها في
 الدنيا ، حتى لكانهم « لم يلبثوا » فيها في قبورهم إلا ساعة من النهار ، أي :

إلا مدة قصيرة من النهار . يتعارفون بينهم ، أى : لا تتسع تلك المدة
إلا للتعارف فيما بينهم .

وقوله : « كان لم يلبثوا ، جملة حالمة من ضمير الجمع فى يحشرهم .

وخصت الساعة بكونها من النهار : لأنها أعرف لهم من ساعات الليل.

والمقصود بالتشبيه : بيان أن هذه السنوات الطويلة التى قضاهها هؤلاء
المشركون فى الدنيا يتمتعون بلموها ولعبها ، ويستبعدون معها أن هناك بعثا
وحسابا قد زالت عن ذاكرتهم فى يوم القيامة ، حتى لكانهم لم يمكثوا
فيها سوى وقت قصير لا يتسع لأكثر من التعارف القليل مع الأقارب
والجيران والأصدقاء ، وحتى لكان ذلك النعيم الذى تغلبوا فيه دهرًا
طويلا لم يروه من قبل ...

وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - فى سورة الأحقاف : كأنهم يوم يرون
ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ، (١). وقوله - سبحانه - فى سورة الروم
(ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة) (٢) .

فإن قيل : إن هناك بعض الآيات ذكرت أنهم عندما يـألون يـحْيَون بأنهم
لبثوا فى الدنيا يوما أو بعض يوم ، أو عشية أو ضحاها كما فى قوله - تعالى - :
(قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين . قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم) (٣).
وكما فى قوله - تعالى - (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) (٤).
فكيف نجمع بين هذه الآيات التى اختلفت إجابتهم فيها ؟

(١) الآية ٣٥ (٢) الآية ٥٥ .

(٣) سورة المؤمنون الآية ١١٢ ، ١١٣ .

(٤) سورة النازعات الآية ١١٢ .

فالجراب : أن أهل الموقف يتلفون في تقدير الزمن الذي لبثوه في الدنيا على حسب اختلاف أحوالهم ، وعلى حسب أهوال كل موقف ، فإن في يوم القيامة مواقف متعددة بعضها أشد من بعض .

وقوله (يتعارفون بينهم) جملة حالية أيضا من ضمير الجمع في يحشرهم .

قال القرطبي : وهذا التعارف توبيخ وافتضاح ، يقول بعضهم لبعض : أنت أضللتني وأغويتني وحملتني على الكفر ، وليس تعارف شفقة ورحمة وعطف والصحيح أنه لا ينقطع هذا التعارف التوبيخي عند مشاهدة أهوال القيامة ، لقوله - تعالى - (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون يرجع بعضهم إلى بعض القول) ...

فأما قوله : (ولا يسأل حميم حميما) وأشباهه فعناه : لا يسأله سؤال رحمة وشفقة ... (١) .

وقوله : (قد خسر الذين كذبوا بلفاء الله وما كانوا مهتدين) جملة مستأنفة مسوقة لبيان حكم الله عليهم في آخرتهم بعد أن ضيعوا دنياهم . والمراد بلفاء الله : مطلق الحساب والجزاء الكائن في يوم القيامة .

أى : أن هؤلاء الأشقياء الذين أعرضوا عن الحق ، وأنكروا الحشر ، قد خسروا سعادتهم الأبدية ، وحق عليهم العذاب الممين ؛ بسبب كفرهم وطغيانهم ، وعدم اهتدائهم إلى طريق النجاة .

وقوله : (وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ...) تأكيد لخسرانهم ، ولوقوع العذاب بهم ، وتسليمه للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه منهم و (إن) شرطية . و (ما) مزيدة لتأكيد معنى الشرط ، وجملة (فإلينا مرجعهم) جواب للشرط وما عطف عليه .

والمعنى: إن هؤلاء المشركين الذين ناصبوك العداوة أيها الرسول الكريم لا يخفى علينا أمرهم . ونحن إما نرينك ببصرك بعض الذى نعدهم به من العذاب الدنيوى ، وإما (توفينك) قبل ذلك ، وفى كلتا الحالتين فإن مرجعهم إلينا وحدنا فى الآخرة ، فنعاقبهم العقوبة التى يستحقونها .

وقال - سبحانه - (بعض الذى نعدهم) للإشارة إلى أن ما سينزل بهم من عذاب دنيوى ، هو جزء من العذاب المدخر لهم فى الآخرة .

وقد أنجز الله - تعالى - وعده لنبيه - صلى الله عليه وسلم - ، فسلط عليهم القحط والمجاعة ، حتى كانوا لشدة جوعهم يرون كأن بينهم وبين السماء دخانا ، ونصر المسلمين عليهم فى غزوتى بدر والفتح ، وكل ذلك حدث فى حياة النبى - صلى الله عليه وسلم - .

وقال - سبحانه - (بعض الذى نعدهم) ولم يقل بعض الذى وعدناهم ، لاستحضار صورة العذاب ، وللدلالة على تجدد واستمراره .

أى : نعدهم وعدا متجددا على حسب ما تقتضيه حكمتنا ومشيتنا ، من إظهار عقاب إنذار ، ومن وعيد بعد وعيد .

والمراد من الشهادة فى قوله : ثم الله شهيد على ما يفعلون ، لازمها وهو المعاقبة والمجازاة ، فكأنه - سبحانه - يقول : ثم الله - تعالى - بعد ذلك معاقب لهم على ما فعلوه من سيئات ، وما يرتكبونه من منكرات .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : الله شهيد على ما يفعلون فى الدارين فما معنى ثم ؟

قلت : ذكرت الشهادة والمراد مقتضاها ونتيجتها وهو العقاب ، فكأنه قال : ثم الله معاقبهم على ما يفعلون . ويجوز أن يراد أن الله مؤد شهادته على أفعالهم يوم القيامة حين ينطق جلودهم وألسنتهم وأيديهم فتكون شاهدة

عليهم ، (١) .

هذا ، وفي معنى هذه الآية وردت آيات أخرى منها قوله - تعالى - :
 « وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك ، فإنما عليك البلاغ وعلينا
 الحساب » ، (٢) وقوله - تعالى - : « فاصبر إن وعد الله حق ، وإما نرينك بعض
 الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون » ، (٣) .

ثم بين - سبحانه - أن من مظاهر رحمته بعباده ، أن جعل لكل أمة رسولا
 يهديها إلى الحق وإلى الطريق المستقيم فقال - تعالى - : « ولكل أمة رسول
 فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون » .

أى : أنه - سبحانه - اقتضت حكمته ورحمته أن يجعل لكل جماعة من
 الناس ، رسولا يبلغهم ما أمره الله بتبليغه ، ويشهد عليهم بذلك يوم القيامة ،
 فإذا جاء رسولهم وشهد بأنه قد بلغهم ما أمره الله به ، قضي - سبحانه - بينهم
 وبينهم بالعدل ، فحكم بنجاة المؤمنين وبعقوبة الكافرين ، ولا يظلم ربك أحدا .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : فكل أمة تعرض على الله
 تعالى - بحضرة رسولها ، وكتاب أعمالها من خير أو شر شاهد عليهم ،
 وحفظتهم من الملائكة شهود أيضا أمة بعد أمة ، وهذه الأمة الشريفة
 وإن كانت آخر الأمم في الخلق ، إلا أنها أول الأمم يوم القيامة ، يفصل
 بينهم ويقضى لهم كما جاء في الصحيحين عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
 أنه قال : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، المقضى لهم قبل الخلائق » ،
 فأتمته إنما حازت قصب السبق بشرف رسولها - صلوات الله وسلامه عليه
 دائما إلى يوم الدين - (٤) .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٣٩ . (٢) سورة الرعد الآية ٤٠ .

(٣) سورة غافر الآية ٧٧ . (٤) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤١٩ .

وقوله : « ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ، حكاية لأقوالهم الدالة على طغيانهم وفجورهم .

أى : أن هؤلاء لم يكتفوا بالإهراض عن دعوة الحق ، بل قالوا لرسولهم صلى الله عليه وسلم - الذى حذرهم من عذاب الله إذا ما استمروا فى كفرهم : متى يقع علينا هذا العذاب الاليم الذى تهددنا به ؟ إننا نتعجله فأت به إن كنت أنت وأصحابك من الصادقين فى دعواكم أن هناك عذابا ينتظرنا .

وهذا القول منهم يدل على توغلبهم فى الكفر والجحود ، وعدم أكثرائهم بما يحذرهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم .

ولذا أمر الله تعالى : رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يرد عليهم فقال : « قل لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله ... » .

أى : قل يا محمد هؤلاء الجاهلين المتعجلين للعذاب : إننى لا أملك لنفسى فضلا عن غيرها شيئا من الضر فأدفعه عنها ، ولا شيئا من النفع فأجلبه لها . لكن الذى يملك ذلك هو الله وحده ، فهو - سبحانه - الذى يملك أن ينزل العذاب بكم فى أى وقت يشاء ، فلماذا تطلبون منى ما ليس فى قدرتى . وعلى هذا التفسير يكون الاستثناء منقطعا .

ويجوز أن يكون متصلا فيكون المعنى : قل لهم يا محمد إننى لا أملك لنفسى شيئا من الضر أو النفع ، إلا ما شاء الله - تعالى - أن يجعلنى قادرا عليه منهما ، فإننى أملكه بمشيئته وإرادته .

وقدم - سبحانه - الضر على النفع هنا ، لأن الآية مسوقة للرد على المشركين ، الذين تعجلوا نزول العذاب الذى هو نوع من الضر .

أما الآية التى فى سورة الأعراف ، وهى قوله - تعالى - « قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ... » فقد قدم فيها النفع على الضر ، لأنها مسوقة لبيان الحقيقة فى ذاتها ، وهى أن الرسول - صلى الله عليه وسلم -

لا يملك لنفسه شيئاً من التصرف في هذا الكون ، والإشعار بأن النفع هو المقصود بالذات من تصرفات الإنسان .

وقوله : لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ، تأكيد لما قبله ، وتقرير لقدرة الله - تعالى - النافذة .

أى : لكل أمة من الأمم أجل قدره الله - تعالى - لا تهاه حياتها ، فإذا حان وقت هذا الأجل هلكت في الحال دون أن تتقدم على الوقت المحدد لموتها ساعة أو تتأخر أخرى .

ثم سافت السورة الكريمة ألواناً أخرى من الأجوبة التي لقنها الله - تعالى - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - لكي يرد بها على المشركين الذين تعجلوا العذاب كما صورت أحوالهم عندما يرون العذاب ، فقال - تعالى - :

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ

عَذَابُهُ بَيِّنَاتٌ أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ

إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنُمْ بِهِ ؕ ءَالْعَنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥٢﴾ ثُمَّ

قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ

تَكْسِبُونَ ﴿٥٣﴾ وَيَسْتَبْعُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقُّ

وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٤﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ

لَا فِتْنَتَ بِهِ ؕ وَأَسْرَوْا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمُ

بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٥﴾

وقوله : أَرَأَيْتُمْ ، بمعنى أخبروني . وكلمة أَرَأَيْتُمْ تستعمل في القرآن للتنبيه والحث على الرؤية والتأمل ، فهو استفهام للتنبيه مؤداه : أَرَأَيْتَ كَذَا أَوْ عَرَفْتَهُ ؟

لأن لم تكن أبصرته أو عرفته فانظره وتأمله وأخبرنى عنه .
ولما كانت الرؤية للشيء سبباً لمعرفة والإخبار عنه ، أطلق السبب
حواريد المسبب فهو مجاز مرسل علاقته السببية والمسببية .

وقوله : د بيانا ، أى : ليلا ، ومنه البيت لأنه يات فيه . يقال : بات
بيت بيتاً وبياتاً .

والمعنى : أخبرونى أيها الجاهلون الحقى : أى دافع جعلكم تتعجلون
نزول العذاب ؟ إن وقوع العذاب سواء أكان بالليل أم بالنهار لا يمكن دفعه ،
ولا يمكن أن يعجله عاقل ، لأنه - كما يقول صاحب الكشف - : كل
مكروه ، مر المذاق ، موجب للنفار منه ، فكيف ساغ لكم أن تستعجلوا
نزول شيء فيه هلاككم ومضرتكم ؟ ١١٩

وقال - سبحانه - د بيانا ، ولم يقل ليلا ، للإشعار بمجىء العذاب فى
وقت غفلتهم ونومهم بحيث لا يشعرون به ، فهم قد يقضون جانباً من الليل فى
اللغو واللعب ، ثم ينامون فيأتيهم العذاب فى هذا الوقت الذى هجموا فيه .
فآلية الكريمة توبيخ لهم على استعجالهم وقوع شيء من شأن العقلا .
أنهم يرجون عدم وقوعه ،

ولذا قال القرطبي قوله : د ماذا يستعجل منه المجرمون ، استفهام معناه
التهميل والتعظيم . أى : ما أعظم ما يستعجلون به . كما يقال لمن يطلب أمراً
تستوخم عاقبته . ماذا تجنى على نفسك (١) .

وجواب الشرط لقوله : د إن أنا كم . . . ، محذوف والتقدير : إن
أنا كم عذابه فى أحد هذين الوقتين أفزعكم وأهلككم فلماذا تستعجلون
وقوع شيء هذه نتائجه ؟

وقد ذكر صاحب الكشف وجهاً آخر بعد أن ذكر هذا الوجه فقال
فإن قلت : فهلا قيل ماذا يستعجلون منه ؟ قلت : أريدت الدلالة على موجب
ترك الاستعجال وهو الإجماع ؛ لأن من شأن المجرم أن يخاف التعذيب على
إجرامه ، ويهلك فزعاً من مجيئه وإن أبطأ فضلاً عن أن يستعجله ، ويجوز أن
يكون ماذا يستعجل منه المجرمون ، جواباً للشرط . كقولك إن أتيتك ماذا
تطمعنى ؟ (١) .

وقوله — سبحانه — دأبهم إذا ما وقع آمنتم به . . . ، زيادة في تهويلهم
وتأنيبهم والهمزة داخلة على محذوف ، ودأبهم ، حرف عطف يدل على
التوبيخ والتراخي وجيء به هنا للدلالة على زيادة الاستبعاد .

والمعنى : إنكم أيها الجاهلون لستم بصادقين فيما تطلبون ، لأنكم قبل
وقوع العذاب تستعجلون وقوعه ، فإذا ما وقع وشاهدتم أهواله ، وذقت
مرارته . آمنتم بأنه حق ، وتحول استهزاؤكم به إلى تصديق وإذعان وتحسر

وقوله : دال الآن وقد كنتم به تستعجلون ، قصد به زيادة إيلاهم
وحسرتهم ولفظ دال الآن ، ظرف زمان يدل على الحال الحاضرة ، وهو في
حل نصب على أنه ظرف لفعل مقدر .

أى . قيل لهم عند إيمانهم بعد وقوع العذاب : الآن آمنتم بأنه حق ، م
أنكم قبل ذلك كنتم به تستهزئون ، وتقولون للرسول — صلى الله عليه
وسلم — ولاتباعه : دمتى هذا الوعد إن كنتم صادقين . ألا فلتعلموا
أن إيمانكم في هذا الوقت غير مقبول ؛ لأنه جاء في غير أوانه ، وصدقه
الله إذ يقول : فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرت بما كنا به مشركين
فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ، سنة الله التي قد خلت في عباده ، وخس

هناك الكافرون (١) .

وقوله : « ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون » تأكيد لتوبيخهم وتأنيبهم بعد أن نزل بهم العذاب ، وهو معطوف على لفظ « قيل » المقدر قبل لفظ « الآن » .

أى : قيل لهم : الآن آمنتم بأن العذاب حقيقة بعد أن كنتم به تستعجلون ثم قيل هؤلاء الظالمين الذين أصروا على الكفر وأقراف المنكرات : ذوقوا عذاب الخلد أى العذاب الباقي الدائم ، إذ الخلد والخلود مصدر خلد الشيء إذا بقى على حالة واحدة لا يتغير .

والاستفهام فى قوله : « هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون » للنفي والإنكار . أى لا تجزون إلا بالجزاء المناسب لما كنتم تكسبونه فى الدنيا من كفر بالحق ، وإيذاء للدعاة إليه ، وتكذيب بوحي الله — تعالى — ثم قال — سبحانه — « ويستنبئونك أحق هو » النبأ : كما يقول الراغب .. خبر ذو فائدة عظيمة ، يحصل به علم أو غلبة ظن (١) .

والاستنباء : طلب الأخبار الهامة .

أى : إن هؤلاء الضالين يطلبون منك — أيها الرسول الكريم — على سبيل التهكم والاستهزاء ، أن تخبرهم عن هذا العذاب الذى توعدتهم به ، أهو واقع بهم على سبيل الحقيقة ، أم هو غير واقع وامكنك تحديثهم عنه على سبيل الإرهاب والتهديد ؟

(١) سورة غافر الآيتان ٨٤ ، ٨٥

(٢) المفردات فى غريب القرآن ص ٤٨١

وقوله : « قل إني وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين » ، إرشاد من الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - إلى الجواب الذي يرد به عليهم .

ولفظ « إني » بكسر الهمزة وسكون الياء - حرف جواب وتصديق بمعنى نعم ، إلا أنه لا يستعمل إلا مع القسم .

أي : قل لهم يا محمد : نعم وحق ربي إن العذاب الذي أخبرتكم لا يحيص لكم عنه ، وما أنتم بمعجزى الله - تعالى - إذا أراد أن ينزله به في أى وقت يريد ، بل أنتم في قبضته وتحت سلطانه ومملكه ، فاتقوا الله بأن تخلصوا له العبادة ، وتبعوا رسوله - صلى الله عليه وسلم - فيما جاءكم به من عنده - سبحانه -

وقد أكد - سبحانه - الجواب عليهم بأنهم وجوه التأكيد ؛ لأنهم كانوا قوما ينكرون أشد الإنكار أن يكون هناك عذاب وحساب وبعث وجنة ونار .

قال ابن كثير : وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آيتان أخريان يأمر الله - تعالى - رسوله فيهما أن يقسم به على من أنكر المعاد ، الآية الأولى فهي قوله - تعالى - : « وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم » (١) وأما الآية الثانية فهي قوله - تعالى - « زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن » (٢) .

وجملة « وما أنتم بمعجزين » ، إما معطوفة على جواب القسم ، أو مستأنفة سبقت لبيان عجزهم عن الخلاص ، وتأكيد وقوع العذاب عليهم .

ثم بين - سبحانه - أنهم إن استعاضوا افتدائهم أنفسهم من العذاب عن

(١) سورة سبأ الآية ٣

(٢) سورة التغابن الآية ٧

وقوعه فقال - تعالى - : « ولو أن لكل نفس ظلمت مافى الأرض لا افتدت به » .

أى : ولو أن لكل نفس تلبست بالظلم بسبب شركها وفسوقها ، جميع مافى الأرض من مال ومتاع ، وأمكنتها أن تقدمه كفداء لها من العذاب يوم القيامة ، لقدمته سريعا دون أن تبقى منه شيئا حتى تفتدى ذاتها من العذاب المهيئ .

ومفعول « افتدت » محذوف . أى لا فتدت نفسها به .

ولو هنا استتاعية ، أى : امتنع افتداء كل نفس ظالمة ، لا متناع ملكها لما تفتدى به ذاتها وهو جميع مافى الأرض من أموال ، ولا امتناع قبول ذلك منها فيما لو ملكته على سبيل الفرض .

وقوله « وأسروا الندامة لما رأوا العذاب » بيان لما انتابهم من حسرات عند مشاهدتهم لأهوال العذاب المعد لهم .

و « أسروا » من الإسرار بمعنى الإخفاء والسكران . يقال : أسر فلان الحديث . أى : خفص صوته به ، ويقابله الإعلان والجهر ، ومنه قوله - تعالى - : « وأسروا قواكم أو اجروا به إنه عليم بذات الصدور » .

والندامة والندم : ما يجده الإنسان فى نفسه من آلام وحسرات على أقوال أو أفعال سيئة ، فات أو ان تداركها .

أى : أخفى هؤلاء الظالمون الندامة حين رأوا بأبصارهم مقدمات العذاب ، وحين أيقنوا أنهم لا نجاة لهم منه ، ولا مصرف لهم عنه .

قال صاحب الكشف : قوله - سبحانه - « وأسروا الندامة لما رأوا

العذاب ، لأنهم بهتوا لرؤيتهم ما لم يحسبوه ، ولم يخطر ببالهم ، وعانوا من شدة الأمر وتفاقمه ، ما سلمتهم قواهم ، وبهرهم ، فلم يطيقوا عنده بكاء ولا صراخا ولا ما يفعله الجازع . سوى إسرار الدم والحسرة في القلوب ، كما ترى المقدم للصلب يشخذه مادهم من فظاعة الخطب ويغلب ، حتى لا ينبس بكلمة ويبقى جامدا مبهوتا .

وقيل : أسرو رؤسائهم الندامة من سفلتهم الذين أضلواهم ، حياء منهم وخوفا من توبيخهم . . .

وقيل أسروا الندامة : أظروها من قولهم أسر الشيء إذا أظهره وليس هناك تجلد ، (١) .

وقوله : وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون ، بيان لعدالة الله في أحكامه بين عباده .

أى : وقضى الله - تعالى - بين هؤلاء الظالمين وبين غيرهم بالعدل ، دون أن يظلم أحدا .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدل على كمال قدرته ، وسعة رحمته ، وعلى أنه وحده الذي يملك التحليل والتجريم ، ويعلم السر وأخفى فقال - تعالى - :

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

مَا لَا إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَئِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي

وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ

مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾

قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا
 قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٩٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ
 لِحَالِي اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ
 أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١٠٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ
 سُحْرٍ إِنِ لَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ
 فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ
 وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١٠١﴾

أى : ألا إن الله وحده لا غيره ، ملك ما فى السموات وما فى الأرض من
 مخلوقات ، وهو - سبحانه - يتصرف فيها وفق إرادته ومشئته كما يتصرف
 المالك فيما يملكه ، فهو يعطى من يشاء ويغفر لمن يشاء ، ويتوب على من يشاء
 ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

وقوله : ألا إن وعد الله حق ، أى : ألا إن كل ما وعد الله به الناس
 من ثواب وعقاب وغيرهما ، ثابت ثبوتاً لا ريب فيه ، وواقع وقوعاً
 لا يحصى عنه .

وصدرت الآية للكرامة بأداة الاستفتاح دألاً ، الدالة على التنبيه ، لحض
 الغافلين عن هذه الحقيقة على التذكر والاعتبار والعودة إلى طريق الحق .
 وأعيد حرف التنبيه فى جملة دألاً إن وعد الله حق ، لتمييزها بهذا
 التنبيه عن سابقاتها ، لأنها مقصودة بذاتها ؛ إذ أن المشركين كانوا يظنون
 أن ما وعدهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو من باب الترغيب والترهيب
 وليس من باب الحقائق الثابتة .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : - ولكن أكثرهم لا يعلمون ، أى ولكن أكثر هؤلاء الناس الذين بعثت إليهم يا محمد ، لا يعلمون ما جئت به علما نافعاً لسوء استعدادهم ، وضعف عقولهم ، وخبث نفوسهم .

وقال أكثرهم إنصافاً للقلة المؤمنة التى علمت الحق فاتبعته وصدقته ، ووقفت إلى جانب الرسول - صلى الله عليه وسلم - تؤيده وتفتدى دعوته بالنفس والمال وقوله : دهر يحيى ويميت وإليه ترجعون ، بيان لسكالم قدرته ، إثريان عظيم ملكوته ، ونفاذ وعده .

أى : هو - سبحانه - الذى يحيى من يريد إحياءه ، ويميت من يريد إيماته وإليه وحده ترجعون جميعاً ، فيحاسبكم على أعمالكم ، ويجازى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

ثم وجه - سبحانه - نداء إلى الناس ، أمرهم فيه بالانتفاع بما اشتمل عليه القرآن الكريم ، من خيرات وبركات فقال - تعالى - : يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم . وشفاء لما فى الصدور . وهدى ، ورحمة للمؤمنين .

والموعظة معناها : التذكير بالتزام الحق والخير ، واجتناب الباطل والشر ، بأسلوب يلين القلوب ، ويرقق النفوس .

والشفاء : هو الدواء الشافى من كل ما يؤذى ، ويجمع على أشفيه .

والهدى : هو الإرشاد والدلالة بلطف إلى ما يوصل إلى المقصد والبغية والرحمة معناها الإحسان ، أو إرادة الإحسان .

والمعنى : يا أيها الناس قد جاءكم من الله - تعالى - كتاب جامع لكل ما تحتاجون إليه من موعظة حسنة ترق لها القلوب ، وتخشع لها النفوس ، وتصلح بها الأخلاق ومن شفاء لأمراض صدوركم ، ومن هداية لكم إلى طريق الحق والخير ، ومن رحمة للمؤمنين ترفعهم إلى أعلى الدرجات وتكفر ما حدث منهم من سيئات .

وجاء هذا الإرشاد والتوجيه عن طريق النداء ، استمالة لهم إلى الحق بألطف أسلوب ، وأكمل بيان ، حتى يثوبوا إلى رشدهم ، ويتنبهوا من غفلاتهم .
ووصفت الموعظة بأنها من ربكم ، لتذكيرهم بما يزيد بها تعظيها وقبولاً ، لأنها لم تصدر عن مخلوق تحتل توجيهاته الخطأ والصواب ، وإنما هي صادرة من خالق النفوس ومربيها ، العليم بما يصلحها ويشفيها .
وقيد الرحمة بأنها للمؤمنين . لأنهم هم المستحقون لها ، بسبب إيمانهم وتقواهم .

قال الألوسى ماملخصه : واستدل بالآية على أن القرآن يشفى من الأمراض البدنية كما يشفى من الأمراض القلبية ، فقد أخرج ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال : جاء رجل إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : إني أشتكى صدرى . فقال - عليه الصلاة والسلام - : اقرأ القرآن . يقول الله - تعالى - : شفاء لما فى الصدور .

وأخرج البيهقى فى الشعب عن وائلة بن الأسقع أن رجلاً شكاً إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وجع حلقه . فقال له عليك بقراءة القرآن ، .
وأنت تعلم أن الاستدلال بهذه الآية على ذلك مما لا يكاد يسلم . والخبر الثانى لا يدل عليه ، إذ ليس فيه أكثر من أمره - صلى الله عليه وسلم - الشاكي بقراءة القرآن إرشاداً له إلى ما ينفعه ويزول به وجعه .

ونحن لا ننكر أن لقراءة القرآن بركة . قد يذهب الله بسببها الأمراض والأوجاع ، وإنما ننكر الاستدلال بالآية على ذلك .

والخبر الأول وإن كان ظاهراً فى المقصود . لكن ينبغى تأويله . كأن يقال : لعلة - صلى الله عليه وسلم - اطلع على أن فى صدر الرجل مرضاً معنوياً قلبياً ، قد صار سبباً للمرض الحسى البدنى . فأمره - صلى الله عليه وسلم - بقراءة القرآن ليروى عنه الأول فيروى الثانى .

والحسن البصرى يذكر كون القرآن شفاء للأمراض . فقد أخرج أبو الشيخ عنه أنه قال : إن الله - تعالى - جعل القرآن شفاء لما في الصدور ، ولم يجعله شفاء لأمراضكم ، والحق ما ذكرنا ، (١) .

وقوله دقل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ، هو خير مما يجمعون ، حض للناس على اغتنام ما في تعاليم الإسلام من خيرات ، وإيثارها على ما في الدنيا من شوائب .

أى : قل يا محمد لمن يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة : اجعلوا فرحكم الأكبر ، وسروركم الأعظم ، بفضل الله الذى شرع لكم هذا الدين على لسان رسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - ، وبرحمته التى وسعت كل شيء . وهى بالمؤمنين أوسع ، لا بما يجمعون فى هذه الدنيا من أموال زائلة ومتع فانية .

وقد فسر بعضهم فضل الله ورحمته بالقرآن ، ومنهم من فسر فضل الله بالقرآن ، ورحمته بالإسلام ، ومنهم من فسرها بالجنة والنجاة من النار . ولعل تفسيرهما بما يشمل كل ذلك أولى ؛ لأنه لم يرد نص صحيح عن الصادق المصدوق - صلى الله عليه وسلم - يحدد المراد منهما ، ومادام الأمر كذلك فحملهما على ما يشمل الإسلام والقرآن والجنة أولى .

قال ابن كثير : قوله - تعالى - دقل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ، أى بهذا الذى جاءهم من الله من الهدى ودين الحق فليفرحوا ، أولى مما يفرحون به من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية والذهابة لا محالة . فعن أنفع بن عبد الكلاعى قال : لما قدم خراج العراق إلى عمر - رضى الله عنه - خرج عمر ومولى له ، فجعل بعد الإبل ، فإذا هى أكثر من ذلك ، فجعل

عمر يقول : الحمد لله - تعالى - ، ويقول مولاه : هذا واقع من فضل الله ورحمته . فقال : عمر كذبت ليس هذا هو الذي يقول الله - تعالى -
 « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون (١) » .
 أى : ليس هذا المال هو المعنى بهذه الآية ، وإنما فضل الله ورحمته يتمثل فيما جاءهم من الله - تعالى - من دين قويم ، ورسول كريم ، وقرآن مبين ودخلت الباء على كل من الفضل والرحمة ، الإشعار باستقلال كل منهما بالفرح به .

والجار والمجرور فى كل منهما متعلق بمحذوف ، وأصل الكلام : قل لهم يا محمد ليفرحوا بفضل الله وبرحمته ، ثم قدم الجار والمجرور على الفعل لإفادة الاختصاص ، وأدخلت الفاء لإفادة السببية ، فكأنه قيل : إن فرحوا بشئ فليكن بسبب ما أعطاهم الله - تعالى - من فضل ورحمة ، لا بسبب ما يجمعون من زينة الحياة الدنيا .

قال القرطبي : والفرح اذنة فى القلب بإدراك المحبوب . وقد ذم الله للفرح فى مواضع ، كقوله - سبحانه - « إن الله لا يحب الفرحين » ، وكقوله « إنه لفرح غفور » ، ولكنه مطلق . فإذا قيد الفرح لم يكن ذما ، لقوله - تعالى - « فرحين بما آتاهم الله من فضله » ، وكقوله - سبحانه - هنا فبذلك فليفرحوا . أى بالقرآن والإسلام فليفرحوا . . . (٢) » .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يرد أيضا على أولئك الذين أحلوا وحرموا على حسب أهوائهم دون أن يأذن الله لهم بذلك فقال . « قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا ، قل الله أذن لكم أم على الله تفترون » ، أى : قل لهم يا محمد - أيضا - أخبروني

أيها المبدلون لشرع الله على حسب أهوائكم : إن الله - تعالى - قد أفاض عليكم ألوانا منه الرزق الحلال ، فبجئتم أنفسكم ، وقسمتم هذا الرزق الحلال ، فجعلتم من حلالا وجعلتم منه حراما ،

وقد حكى الله - تعالى - فعلمهم هذا في آيات متعددة ، منها قوله - تعالى - وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لك كورنا ومحرم على أزواجنا . (١) . قال الإمام ابن كثير : قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم ، نزلت إنكارا على المشركين فيما كانوا يملكون ويحرمون من البحائر والسوائب والوصائل كقوله - تعالى - : وجعلوا لله عما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا . . . الآيات .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن أبي إسحاق ، سمعت أبا الأحوص وهو عوف بن مالك بن فضلة يحدث عن أبيه قال : أتيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأثارته الهيئة فقال : هل لك مال ، ؟ قلت : نعم . قال : من أى المال ؟ قال قلت : من كل المال . من الإبل والرفيق والخيل والغنم فقال : إذا آتاك الله مالا فلير عليك ثم قال : هل تنتج إبلك صحاحا آذانها ، فتعتمد إلى موسى فتقطع آذانها فتقول : هذه بحر . وتشق جلودها وتقول : هذه صرم وتحرمها عليك وعلى أهلِكَ . قال : نعم . قال : فإن ما آتاك الله لك حل . ساعد الله أشد من ساعدك . وموسى الله أحد من موساك (٢) .

وقوله دقل الله أذن إلكم أم على الله تفنرون ، إستفهام قصد به التوبيخ والزجر أى : قل لهم يا محمد على سبيل التوبيخ والزجر : إن الله وحده هو

(١) سورة الأنعام . الآية ص ١٣٩

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٢٣

الذى يملك التحليل والتحرير ، فهل هو - سبحانه - أذن لكم فى ذلك ، أم عليه فترون الكذب ؟ لا شك أنه - سبحانه - لم يذن لكم فى ذلك ، وإنما أنتم الذين حللتم وحرمتهم على حسب أهوائكم . لأنه لو أذن لكم فى ذلك ، لبينه على لسان رسوله - صلى الله عليه وسلم - .

قال صاحب الكشف : وقوله : د الله أذن لكم ، متعلق بأرايتهم ، وقل تكرير للتوكيد . والمعنى أخبرونى الله أذن لكم فى التحليل والتحرير ، وأنتم تفعلون ذلك بإذنه ، أم تكذبون على الله فى نسبة ذلك إليه ، ويجوز أن تكون الهمزة للإنكار وأم منقطعة ، بمعنى بل أنفـتـرون على الله ، تقرير للإفراء .

ثم قال : وكفى بهذه الآية زاجرا بليغا عن التجوز فيما يسأل عنه من الأحكام : وبأعثة على وجوب الاحتياط فيه ، وأن لا يقول أحد فى شيء جائز أو غير جائز إلا بعد إيقان وإتقان ، ومن لم يوقن فليتنق الله وليصمت . وإلا فهو مفتر على الله (١) .

د ثم توعدهم - سبحانه - بسوء المصير على جرأتهم وكذبهم فقال . وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة

أى : هؤلاء الذين أحلوا وحرموا افتراء على الله ماذا يظنون أن الله سيفعل بهم يوم القيامة ؟ أيلظنون أن الله سيقربهم بدون عقاب ؟ كلا إن عقابهم لشديد بسبب افتراءهم عليه الكذب .

وأبهم - سبحانه - هذا العقاب للتمويل والتعظيم ، حيث أباحوا لأنفسهم ما لم يأذن به الله - تعالى - .

وقال - سبحانه - د وما ظن . . . بصيغة الماضى لتحقيق الوقوع ، وأكثر أحوال القيامة يعبر عنها بهذه الصيغة لهذا الغرض .

وقوله : « إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون ، تفديلا
قصد به حض الناس على شكر خالقهم ، واتباع شريعته فيما أحل وحرم .
أى : إن الله لذو فضل عظيم على عباده ، حيث خلقهم ورزقهم ، وشرفهم
لهم ما فيه مصالحهم ومنفعتهم ، ولكن أكثرهم لا يشكرونه على هذه النعم
لأنهم يستعملونها في غير ما خلقت له .

وبعد أن ذكر - سبحانه - عباده بفضله ، وما يجب عليهم من شكره ،
عطف على ذلك تذكيره إياهم بإحاطة علمه بكل صغير وكبير في هذه الكون
فقال : « وما تكون في شأن ، وما تلو منه من قرآن ، ولا تعملون من عمل
إلا كنا عليكم شهودا » .

أى : وما تكون - أيها الرسول الكريم - في شأن من العثون أو في
حال من الأحوال .

وما تلو من أجل ذلك الشأن من قرآن يهدي إلى الرشد .

ولا تعملون - أيها الناس - عملا صغيرا أو كبيرا . إلا كنا عليكم
مطلعين .

ومن في قوله « منه » للتعليل ، والضمير يعود إلى الشأن ، إذ التلاوة أعظم
شئونه - صلى الله عليه وسلم - ولذا خصت بالذكر . ويجوز أن يعود للقرآن
الكريم ، ويكون الإضمار قبل الذكر لتفخيم شأنه ، وتعظيم أمره .

ومن في قوله « من قرآن » ، مزيدة لتأكيد النفي .

وقال الآلوسى : والخطاب الأول خاص برأس النوع الإنساني ، وسيد
المخاطبين - صلى الله عليه وسلم - وهذا وهو قوله « ولا تعملون ... » عام
ويشمل سائر العباد برهم وفاجرهم وقد روعى في كل من المقامين ما يليق به ،
فعبّر في مقام الخصوص في الأول بالشأن ، لأن عمل العظيم عظيم ، وفي الثاني

بالعمل العام للجليل والحقير . وقبل الخطاب الأول عام للامة أيضا كما فى قوله - : يا ايها النبى إذا طلقتهم .

وقوله : إلا كنا عليكم شهودا ، استثناء مفرغ من أعم أحوال المخاطبين بالافعال الثلاثة . أى : وما تلابسون بشىء منها فى حال من الأحوال إلا حال كوننا رقباء مطلعين عليه ، حافظين له ، (١) .

وقوله : إذ تفيضون فيه ، أى : تخوضون وتندفعون فى ذلك العمل ، لأن الإفاضة فى الشىء معناها الاندفاع فيه بكثرة وقوة .

وقوله : وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء . بيان لشمول علمه - سبحانه - لكل شىء .

ويعزب : أى يبعد ويغيب ، وأصله من قولهم : عزب الرجل يعزب بإبله إذا أبعدها وغاب فى طلب الكلاء والعشب . والكلام على حذف مضاف .

أى : وما يغيب ويخفى عن علم ربك مثقال ذرة فى الوجود علوية وسفلية ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، إلا وهو معلوم ومسجل عنده فى كتاب عظيم الشأن ، تام البيان .

وقوله : من مثقال ذرة ، تمثيل لقلة الشىء ودقته ، ومن فيه لتأكيد النفي وقدمت الأرض على السماء هنا ، لأن الكلام فى حال أهلها ، والمقصود إقامة البرهان على إحاطته علما - سبحانه - بتفاصيلها . فكأنه - سبحانه - يقول : إن من يكون هذا شأنه لا يخفى عليه شىء من أحوال أهل الأرض مع نبينهم - صلى الله عليه وسلم - .

وقوله : ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ، جملة مستقلة ليست معطوفة على ما قبلها

و لا ، نافية للجنس وأصغر ، اسمها منصوب لشبهه بالمضاف ، ودا أكبر معطوف عليه . و فى كتاب مبين ، متعلق بمحذوف خبرها .

وقدم ذكر الأصغر على الأكبر ، لأنه هو الأهم في سياق العلم بما خفي
عن الأمور .

وقرأ حمزه ويعقوب وخلف ، ولا أصغر ، بالرفع على أنه خبر لمبتدأ
محذوف . أى : ولا ما هو أصغر من ذلك .

والمراد بالكتاب المبين : علم الله الذى وسع كل شيء ، أو اللوح المحفوظ
الذى هو محل معلوماته .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد أقامت الأدلة على شمول قدرة
الله - تعالى - لكل شيء ، وعلى دعوة الناس إلى الانتفاع بما جاء به القرآن
من خيرات وبركات ، وعلى وجوب التزامهم بما شرعه - سبحانه - وعلى
إحاطة علمه بما ظهر وبطن من الأمور .

وبعد أن وجه - سبحانه - نداء إلى الناس دعاهم فيه إلى الانتفاع بما جاء
في القرآن من خيرات ، وتوعد الذين شرعوا شرائع لم يأذن بها الله ، وأقام
الأدلة على نفاذ قدرته ، وشمول علمه .

بعد كل ذلك ، بشر أو لياه بحسن العاقبة ، وأنذر أعداءه بسوء المصير ،
ورد على الذين قالوا اتخذ الله ولداً بما يكبتهم ويخرس ألسنتهم . فقال - تعالى :

الْأَنبِيَاءُ

أَوَّلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَوَكَانُوا يُتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ هُمُ الْبَشَرُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ
لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزَنُكَ
لِقَوْلِهِمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَا إِذَا
دَعَاكَ اللَّهُ إِلَى شَيْءٍ مِّنَ السَّمَوَاتِ وَمِنَ الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ
عِندَ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾

هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَلَنَتَّخِذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَ كُمْ مِنْ مُّسٰلِكٍ بِهٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَمْقِرُونَ عَلَى اللَّهِ أَلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٧٩﴾ مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَجْمَعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٨٠﴾

والأولياء : جمع ولى مأخوذ من الولى بمعنى القرب والدنو . يقال : تباعد فلان من بعد ولى أى : بعد قرب .

والمراد بهم : أولئك المؤمنون الصادقون الذى صلحت أعمالهم ، وحسنت باقية - تعالى - صلتهم ، فصاروا يقولون ويفعلون كل ما يحبه . ويحتجبون كل ما يكرهه .

قال الفخر الرازى : ظهر فى علم الاشتقاق أن تركيب الواو واللام والياء يدل على معنى القرب ، فولى كل شيء هو الذى يكون قريبا منه . والقرب من الله إنما يتم إذا كان القلب مستغرقا فى نور معرفته ، فإن رأى رأى دلائل قدرته ، وإن سمع سمع آيات وحدانيته ، وإن فطقت فطقت بالشأن عليه ، وإن تحرك تحرك فى خدمته ، وإن اجتهد اجتهد فى طاعته ، فهناك يكون فى غاية القرب من الله - تعالى - ويكون وليا له - سبحانه - . وإذا كان كذلك كان الله - تعالى - وليا له - أيضا - كما قال : الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور (١) .

وقد افتتحت الآية الكريمة بأداة الاستفتاح «ألا»، وبحرف التوكيد «إن»، لتنبية الناس إلى وجوب الاقتداء بهم، حتى ينالوا ما قاله، أو تلك الأولياء الصالحون من سعادة دنيوية وأخروية.

وقوله «لا خوف عليهم ولا هم يحزنون»، تمييز لهم عن غيرهم ممن لم يبلغوا درجتهم.

والخوف: حالة نفسية تجعل الإنسان مضطرب المشاعر لتوقعه حصول ما يكرهه.

والحزن اكتئاب نفسي يحدث للإنسان من أجل وقوع ما يكرهه.

أى أن الخوف يكون من أجل مكروه يتوقع حصوله، بينما الحزن يكون من أجل مكروه قد وقع فعلا.

والمعنى: ألا إن أولياء الله الذين صدق إيمانهم، وحسن عملهم، لا خوف عليهم من أهوال الموقف وعذاب الآخرة، ولا هم يحزنون على ما تركوا وراءهم من الدنيا، لأن مقصدهم الأسمى رضا الله - سبحانه -، ففعلوا ما يؤدى إلى ذلك هان كل ما سواه.

وقوله: «الذين آمنوا وكانوا يتقون»، استئناف مسوق لتوضيح حقيقة تقواهم. فكان سائلا قال: ومن هم أولياء الله؟ فكان الجواب: الذين توفروا فيهم. الإيمان الصادق، والبعد التام عن كل ما نهى الله - تعالى - عنه.

وعبر عن إيمانهم بالفعل الماضى، للإشارة إلى أنه إيمان ثابت راسخ، لا تزلزله الشكوك، ولا تؤثر فيه الشبهات.

وعبر عن تقواهم بالفعل الدال على الحال والاستقبال، للإيدان بأن اتقاءهم وابتعادهم عن كل ما يغضب الله من الأقوال والأفعال، يتجدد ويستمر دون أن يصرفهم عن تقواهم وخوفهم منه - سبحانه - ترغيب أو تهيب.

وقوله - سبحانه - : لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، زيادة تكريم وتشريف لهم .

والبشرى والبشارة : الخبر السار ، فهو أخص من الخبر ، وسمى بذلك لأن أثره يظهر على البشرة وهى ظاهر جلد الإنسان ، فيجعله متهلل الوجه ، منبسط الأسارير ، مبتهج النفس .

أى : لهم ما يسرهم ويسعدهم - أيضاً - فى الآخرة من فوز برضوان الله ، ومن دخول الجنة .

قال الآلوسى ما ملخصه ، والثابت فى أكثر الروايات . أن البشرى فى الحياة الدنيا ، هى الرؤيا الصالحة ... فقد أخرج لأطيا السى وأحمد والدرامى والترمذى ... وغيرهم عن عبادة بن الصامت قال : سألت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن قوله - تعالى - : لهم البشرى فى الحياة الدنيا ، فقال : هى : « الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له » .

وقيل المراد بالبشرى البشرى للعاجلة نحو النصر والغنيمة والثناء الحسن ، والذكر الجليل ، ومحبة الناس ، وغير ذلك .

ثم قال : وأنت تعلم أنه لا ينبغى العدول عما ورد عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى تفسير ذلك إذا صح . وحيث عدل من عدل لعدم وقوعه على ذلك فيما اظن ، فالأولى أن تحمل البشرى فى الدارين على البشارة بما يحقق نبي الخوف والحزن كائناً ما كان ... ، (١) .

وقوله : لا تبدل الكلمات الله ، أى : لا تغيير ولا خلف لأقوال الله - تعالى - ولا لما وعد به عباده الصالحين من وعود حسنة ، على رأسها هذه البشرى التى تسعدهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

واسم الإشارة في قوله - تعالى - « ذلك الفوز العظيم » ، يعود إلى ما ذكر من البشرى في الدارين .

أى : ذلك المذكور من أن لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، هو الفوز العظيم الذى لا فوز وراءه ، والذى لا يفوقه نجاح أو فضل .
هذا : وقد نقل الشيخ القاسمى - رحمه الله - كلاماً حسناً من كتاب « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » ، فقال ما ملخصه .

هذه الآيات أصل في بيان أولياء الله ، وقد بين - سبحانه - في كتابه ، وبين رسوله في سنته أن لله أولياء من الناس ، كما أن للشيطان أولياء .

وإذا عرف أن الناس فيهم أولياء الرحمن ، وأولياء الشيطان ، فيجب أن يفرق بين هؤلاء وهؤلاء ، كما فرق الله ورسوله بينهما ، فأولياء الله هم المؤمنون المتقون ، كما في هذه الآية ، وفي الحديث الصحيح : من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة ، أو فقد آذنته بالحرب ...

والولاية ضد العداوة ، وأصل الولاية المحبة والقرب ، وأصل العداوة البغض والبعد ، وأفضل أولياء الله هم أنبياءه ، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم ، وأفضلهم محمد - صلى الله عليه وسلم - خاتم النبيين . . فلا يكون ولياً إلا من آمن به واتبعه ، ومن خالفه كان من أولياء الشيطان . . .

وإذا كان أولياء الله هم المؤمنون المتقون ، فيحسب إيمان العبد وتقواه تكون ولايته لله - تعالى - فمن كان أكمل إيماناً وتقوى ، كان أكمل ولاية لله . فالناس متفاضلون في ولاية الله - عز وجل - بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى . . .

ومن أظهر الولاية وهو لا يؤدي الفرائض ، ولا يجتنب المحارم ، كان كاذباً في دعواه ، أو كان مجنوناً .

وليس لأولياء الله شيء يميزون به عن الناس في الظاهر من الأمور

المباحات ، فلا يتميزون بلباس دون لباس ، ولا بحلق شعر أو تقصير ... بل يوجدون فى جميع طبقات الأمة . فيوجدون فى أهل القرآن . وأهل العلم ، وفى أهل الجهاد والسيف ، وفى التجار والزراع والصناع ...

وليس من شرط الولى أن يكون معصوما لا يغلط ولا يخطئ . ، بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة ، ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين . . . (١) .

وبعد أن بين - سبحانه - ما عليه أولياؤه من سعادة دنوية وأخرية ، أتبع ذلك بتسليية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما نفيه من أعدائه من أذى فقال : « ولا يحزنك قولهم ، إن العزة لله جميعا ، هو السميع العليم » .

أى : ولا يحزنك يا محمد ما قاله أعداؤك فى شأنك ، من أنك ساحر أو مجنون ؛ لأن قولهم هذا إنما هو من باب حسدهم ، وجحودهم لدعوتك . والنهى عن الحزن - وهو أمر نفسى لا اختيار للإنسان فيه - المراد به هنا : النهى عن لوازمه ، كالإكثار من محاولة تجديد شأن المصائب ، وتعظيم أمرها ، وبذلك تتجدد الآلام ، ويصعب فسيانها .

وفى هذه الجملة الكريمة تسليية له - صلى الله عليه وسلم - وتأنيس لقلبه ، وإرشاد له إلى ما سيقع له من أعدائه من شرور ، حتى لا يتأثر بها عند وقوعها .

وقوله : « إن العزة لله جميعا هو السميع العليم » ، تعليل للنهى على طريقة الاستئناف . فكانه - صلى الله عليه وسلم - قد قال : وما لى لأحزن وهم قد كذبوا دعوتى ؟ فكان الجواب : « إن الغلبة كلها ، والقوة كلها لله وحده لا لغيره » فهو - سبحانه - القدير على أن يغلِبهم ويقهرهم ويعصمك منهم ، وهو السميع ، لأقوالهم الباطلة ، « العليم » بأفعالهم القبيحة : وسيعاقبهم على ذلك يوم القيامة عقاباً أليماً .

ولا تعارض بين قوله - سبحانه - « إن العزة لله جميعاً ، وبين قوله في آية أخرى « والله العزة و لرسوله وللمؤمنين (١) ، ؛ لأن كل عزة لغيره - سبحانه - فهي مستمدة من عزته ، وكل قوة مستمدة من تأييده وعونه ، والرسول - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنون ، إنما صاروا أعزاء . بفضل ركونهم إلى عزة الله - تعالى - وإلى الاعتماد عليه ، وقد أظهرها - سبحانه - على أيديهم تكريماً لهم .

ولذا قال القرطبي -- رحمه الله -- قوله : « إن العزة لله جميعاً ، أى : القوة الكاملة ، والغلبة الشاملة ، والقدرة التامة لله وحده ، فهو ناصر ك ومعينك ومانعك . و « جميعاً ، نصب على الحال ، ولا يعارض هذا قوله : « والله العزة و لرسوله وللمؤمنين ، فإن كل عزة بالله فهي كما لله ، قال - سبحانه - ، « سبحانه ربك رب العزة عما يصفون ، (٢) .

ثم قال - تعالى - « ألا إن لله من فى السموات ومن فى الأرض ، أى : ألا إن لله وحده ملك جميع من فى السموات ومن فى الأرض من إنس وجن وملائكة .

وجاء التعبير القرآنى هنا بلفظ من الشائع فى العقلاء ، للإيدان بعدم الحاجة إلى التصريح بغيرهم ، لأنهم إذا كانوا مع شرفهم وعلو منزلتهم مملوكين لله - تعالى - كان غيرهم ممن لا يعقل أولى بذلك .

قال صاحب الكشاف : قوله : « ألا إن لله من فى السموات ومن فى الأرض ، يعنى العقلاء المميزين وهم الملائكة والنفلان . وإنما خصهم بالذكر لئلا يؤخذ أن هؤلاء إذا كانوا له وفى مملكه ، فهم عبيد كلمهم ، وهو - سبحانه - ربهم ، ولا يصلح أحد منهم للربوبية ، ولأن يكون شريكاً له فيها ، فإدراهم مما لا يعقل

حق أن لا يكون له ندا وشريك ، وليدل على أن من اتخذ غيره رباً من ملك أو إنس ، فضلاً عن صنم أو غير ذلك ، فهو مبطل تابع لما أدى إليه التقليد - وترك النظر (١) .

وقوله « وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء » .

أى : وما يتبع هؤلاء المشركون فى عبادتهم غير الله شركاء فى الحقيقة ، وإنما هم يتبعون أشياء أخرى سموها من عند أنفسهم شركاء جهلاً منهم ، لأن الله - تعالى - تنزهه وتقدس عن أن يكون له شريك أو شركاء فى ملكه أو فى عبادته . وعلى هذا التفسير تكون « ما » فى قوله « وما يتبع » نافية ، وقوله « وشركاء » مفعول يتبع ، ومفعول يدعون محذوف لدلالة ما قبله عليه . أى : وما يتبع الذين يدعون من دون الله الهة شركاء .

ويجوز أن تكون « ما » استفهامية منصوبة بقوله « يتبع » ، ويكون قوله « شركاء » منصوب بقوله « يدعون » ، وعليه يكون المعنى :

أى شىء يتبع هؤلاء المشركون فى عبادتهم ؟ إنهم يعبدون شركاء سموهم بهذا الاسم من عند أنفسهم ، أما هم فى الحقيقة فلا يعلمون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً . وقوله : « إن يتبعون إلا الظن وإنهم لا يخرصون » ، أى : ما يتبعون فى عبادتهم لغير الله إلا الظن الذى لا يغنى عن الحق شيئاً ، وإلا الخرص المبنى على الوهم المكاذب ، والتقدير الباطل .

وأصل الخرص : الخزر والتقدير للشئ على سبيل الظن لا على سبيل الحقيقة :

قال الراغب : وحقيقة ذلك أن كل قول مقول عن ظن تخمين يقال له خرص ، سواء كان مطابقاً للشئ أو مخالفاً له ، من حيث إن صاحبه لم يقله

عن علم ولا غلبة ظن ولا سماع ، بل أعتمد فيه على الظن والتخمين كفعل من يحرص الثمر على الشجر - ، وكل من قال قولا على هذا النحو قد يسمى كاذبا وإن كان قوله مطابقا للمقول المخبر عنه .

وقيل : الخرص : الكذب كما في قوله - تعالى - « وإن هم إلا يخرصون أي يسكتون (١) » .

ثم بين - سبحانه - جانباً من مظاهر نعمه على عباده فقال - تعالى - « هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا . . . » .

أي : الله وحده - سبحانه - هو الذي جعل لكم الليل مظلماً ، لكي تستقروا فيه بعد طول الحركة في نهاركم من أجل معاشكم ، وهو الذي جعل لكم النهار مضيئاً لكي تبصروا فيه مطالب حياتكم .

والجملة الكريمة بيان لمظاهر رحمة الله - تعالى - بعباده ، بعد بيان سعة علمه ، ونفاذ قدرته ، وشمولها لكل شيء في هذا الكون .

وقوله « إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ، أي : إن في ذلك الجمل المذكور لدلائل واضحات لقوم يسمعون ما يتلى عليهم سماع تدبر وتعقل ، يدل على سعة رحمة الله - تعالى - بعباده ، وتفضله عليهم بالنعم التي لا تحصى .

ثم شرع - سبحانه - في بيان أقبح الرذائل التي تفوه بها المشركون فقال : « قالوا اتخذ الله ولداً . . . » .

والمراد بهؤلاء القائلين : اليهود الذين قالوا : عزير ابن الله - والنصارى الذين قالوا : المسيح ابن الله ، وكفار العرب الذين قالوا : الملائكة بنات الله ، وغيرهم ممن نحاحوهم في تلك الأقوال الشائنة .

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص ١٤٦ - بتصرف وتلخيص .

وقوله : « سبحانه هو الغنى له ما فى السموات والأرض ، تنزيه له — عز وجل — عما قالوا ، فى حقه من أقاويل باطلة .

أى : تنزهه وتقديسه عن أن يكون له ولد ؛ لأنه هو الغنى بذاته عن الولد وعن كل شىء . وهو المالك لجميع الكائنات علويها وسفليها ، وهو الذى لا يحتاج إلى غيره ، وغيره محتاج إليه ، وخاضع لسلطان قدرته .

قال — تعالى — : « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئا إذا . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض ، وتخز الجبال هذا . أن ادعوا للرحمن ولدا . وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا . إن كل من فى السموات والأرض إلا آت الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آت به يوم القيامة فردا ، (١) .

وقوله : « إن عندكم من سلطان بهذا ، تجهيل لهم ورد عليهم . و « إن هنا نافية ، و « من ، مؤكدة لهذا النفي ، ومفيدة للعموم . والسلطان : الحجة والبرهان .

أى : ما عندكم دليل ولا شبهة دليل على ما زعمتموه من أن لله ولدا ، وإنما قلتم ما قلتم لأنظما بصيرتكم ، واستحواذ الشيطان على نفوسكم .

وقوله — سبحانه — « أتقولون على الله ما لا تعلمون ، توبيخ آخر لهم على جهلهم وكذبهم .

أى : أتقولون على الله — تعالى — قولا ، لا علم لـكم به . ولا معرفة لـكم بحقيقته ؟ إن قولكم هذا هو دليل على جهلكم وعلى تعمدكم الكذب والبهتان . قال الألوسى : وفى الآية دليل على أن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة . وأن العقائد لا بد لها من قاطع ، وأن التقليد بمعزل من الاهتداء (٢) .

(١) سورة مريم الآيات من ٨٨ — ٩٥

(٢) تفسير الألوسى ج ١١ ص ١٥٦

وقوله : « قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ، إنذار لهم بسوء العاقبة إذا ما استمروا على شرهم . »

أى : قل لهؤلاء المشركين على سبيل الإنذار والتهديد : إن الذين يفترون على الله الكذب بنسبة الولد إليه ، والشريك له ، لا يفلحون ولا يفوزون بمطلوب أصلا .

وقوله — سبحانه — « متاع قليل » ، بيان لتفاهة ما يحرصون عليه من شهوات الحياة الدنيا . وهو خبر لمبتدأ محذوف .

أى : أن ما يتمتعون به في الدنيا من شهوات وملذات ، هو متاع قليل مهما كثر ؛ لأنه إلى فناء واندثار .

ثم بين — سبحانه — سوء مصيرهم بعد أن غرتهم الدنيا بشهواتها فقال : « ثم إنا مرجعهم ، ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون » .

أى : ثم إنا لا نلينا إلا إلى غيرنا مرجعهم يوم القيامة ، ثم نحاسبهم حساباً عسيراً على أقوالهم الذميمة ، وأفعالهم القبيحة ، ثم نذيقهم العذاب الشديد بسبب كفرهم بآياتنا ، وتكذيبهم لنبيينا — صلى الله عليه وسلم — .

وبذلك زى أن هذه الآيات الكريمة ، قد مدحت أولياء الله الصالحين ، وبشرتهم بالسعادة الدنيوية والأخروية ، وأقامت الأدلة على قدرة الله النافذة ورحمته الواسعة ، وردت على افتراءات المشركين بما يبطل أقوالهم ، ويفضح مزاعمهم .

وبعد أن صافت السورة الكريمة ماساقت من الأدلة على وحدانية الله وعلى صدق رسوله - صلى الله عليه وسلم - وعلى حسن عاقبة المؤمنين وسوء عاقبة المكذبين ... بعد كل ذلك تحدثت عن بعض قصص الأنبياء مع أقوامهم ، فبدأت بجانب من قصة نوح — عليه السلام — مع قومه ، وكيف أن الله تعالى - أغرقهم بعد أن تمادوا في ضلالهم ، فقال — سبحانه — :

وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِن كَانَ كِبُرُ عَلَيْكُمْ
 مَقَامِي وَتَذِكْرِي بَعَايَتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ
 وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا
 تَنْظُرُونَ ﴿٧١﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِن أَجْرِي إِلَّا
 عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ
 وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْفًا وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا
 بِعَايَتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٧٣﴾

قال الإمام الرازى : اعلم أنه - سبحانه - لما بالغ في تقرير الدلائل
 والبيانات وفي الجواب عن الشبه والسؤالات ، شرع بعد ذلك في بيان بعض
 قصص الأنبياء - عليهم السلام - لوجوه :

أحدها : أن الكلام إذا طال في تقرير نوع من أنواع العلوم ، فربما
 حصل نوع من أنواع الملالة ، فإذا انتقل الإنسان من ذلك الفن من العلم إلى
 فن آخر ، انشرح صدره . ووجد في نفسه رغبة جديدة .

وثانيها : ليكون للرسول - صلى الله عليه وسلم - ولأصحابه ، أسوة بمن
 سلف من الأنبياء ، فإن الرسول - صلى الله عليه وسلم - إذا سمع أن معاملة
 الكفار لأتبيائهم سيئة ... خف ذلك على قلبه ، لأن المصيبة إذا عمت خفت .
 وثالثها : أن الكفار إذا سمعوا هذه القصص ، وعلموا أن العاقبة للمتقين
 كان ذلك سببا في انكسار قلوبهم ، ووقوع الخوف والوجل في نفوسهم ،
 وحينئذ يقلعون عن أنواع الإيذاء والسفاهة ... (١) .

ونوح — عليه السلام — : واحد من أولى العزم من الرسل ، وينتهي
نسبه إلى شيث بن آدم — عليه السلام — وقد ذكر في القرآن في ثلاث
وأربعين موضعا .

وكان قومه يعبدون الأصنام ، فأرسل الله إليهم نوحا ليدهم على
طريق الرشاد .

وقد تكررت قصته مع قومه في سورة الأعراف ، وهود ، والمؤمنون ،
ونوح . . . بصورة أكثر تفصيلا .

أما هنا في سورة يونس فقد جاءت بصورة مجملة ، لأن الغرض منها هنا ،
إبراز جانب التحدى من نوح لقومه ، بعد أن مكث فيهم زمانا طويلا ،
يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وترك عبادة غيره .

والمعنى : وائل — يا محمد — على مسامع هؤلاء المشركين الذين مردوا
على اقواء الكذب ، نبأ نوح — عليه السلام — مع قومه المغفرين بأموالهم
وكنوزهم ليتدبروا ما في هذا النبا من عظات وعبر ، وليعلموا أن سنة الله
— تعالى — قد اقتضت أن يجعل العاقبة للمتقين .

والمقصود من هذه التلاوة ، دعوة مشركي مكة وأمثالهم ، إلى التدبر فيما
جرى للظالمين من قبلهم ، لعلمهم بسبب هذا التدبر والتأمل يشوبون إلى رشدهم
ويتبعون الدين الحق الذى جاءهم به نبيهم محمد — صلى الله عليه وسلم — .

وقوله : « يا قوم إن كان كبير عليكم مقامى وقد كبرى بآيات الله فعلى الله
توكلت ... » بيان لما قاله لهم بعد أن مكث فيهم زمنا طويلا ، وسمع منهم
ما سمع من استهزاء بدعوته ، وتطاول على أتباعه .

أى : قال نوح لقومه بعد أن دعاهم ليلا ونهارا : يا قوم إن كان
« كبير عليكم » .

أبى : شق وعظام عليكم «مقامى» فيكم ، ووجودى بين أظلمكم عمر اطويلا
وتد كبرى ، إياكم بآيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته ، والتي تستلزم
منكم إخلاص العبادة له ، والشكر انعمه .

إن كان كبر عليكم ذلك ، فعلى الله وحده توكلت ، وإليه وحده فوضت
أمرى ، ولن يصرفنى عن الاستمرار فى تبليغ ما أمرنى بتبليغه وعد أو وعيد
منكم .

وخاطبهم - عليه السلام - بقوله : يا قوم ، استماله لقلوبهم ، وإشعاراً
لهم بأنهم أهله وأقرباؤه الذين يحب لهم الخير ، ويكره لهم الشر .

وجملة « فعلى الله توكلت » ، جواب الشرط . وقيل جواب الشرط
مخذوف والتقدير : إن كان كبر عليكم ذلك ، فافعلوا ما شئتم ، فانى على الله
وحده توكلت فى تبليغ دعوته لكم .

وقوله : « فاجمعوا أمركم وشركاءكم » ، معطوف على ما قبله .

والفعل « اجمعوا » ، بقطع الهمزة مأخوذ من أجمعت على الأمر ، إذا
عزمت عليه عزماً مؤكداً ، ووطنت نفسك على المضى فيه بدون تردد
أو تقاعس .

والمراد بالأمر هنا : المكر والكيد والعداوة وما يشبه ذلك .

والمراد بشركائهم : أصنامهم التى عبدوها من دون الله ، وظنوا فيها النفع
والضرر ، والتمسوا منها العون والنصرة .

والمعنى : أن نوحاً - عليه السلام - قد قال لقومه بصراحة ووضوح :
يا قوم إن كان قد شق عليكم مقامى فيكم درتد كبرى إياكم بآيات الله الدالة
على وحدانيته ، فاجمعوا ما تريدون جمعه من مكر وكيدى ، ثم ادعوا
شركاءكم ليساعدوكم فى ذلك ، فانى ماض فى طريقى الذى أمرنى الله به ،

قال الآلوسى : وقوله « وشركاءكم » منصوب على أنه مفعول معه لأن الشركاء عازمون لامعزوم عليهم . . وقيل إنه منصوب بالعطف على قوله « وأمركم » بحذف المضاف . أى فاجمعوا أمركم وأمر شركائكم .
وقرأ نافع : فاجمعوا بوصل الهمزة وفتح الميم من جمع وعطف الشركاء على الأمر في هذه القراءة ظاهر بناء على أنه يقال : جمعت شركائى ، كما يقال جمعت أمرى . . . (١) .

وقوله : « ثم لا يكن عليكم أمركم غمة » معطوف على ما قبله ، ومؤكد لمضمونه .

وكلمة « غمة » بمعنى الستر والخفاء . يقال : غم على فلان الأمر ، أى : خفى عليه واستتر .

ومنه الحديث الشريف : صوموا لرؤيته - أى الهلال - وافطروا لرؤيته فإن غم عليكم ، فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوماً ، أى فإن استتر وخفى عليكم الهلال ، وحال دون رؤيته لكم حائل من غيم أو ضباب ، فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوماً .

أى : أجمعوا ما تريدون جمعه لى من مكر وكيد واستعينوا على ذلك بشركائكم ، ثم لا يكن أمركم الذى أجمعتم على تنفيذه فيه شيء من الستر أو الخفاء أو الالتباس الذى يجعلكم مترددين فى المضى فيه ، أو متقاعسين عن مجاهرته بما تريدون فعله معى .

ومنه من يرى أن كلمة « غمة » هنا بمعنى الغم كالسكرية بمعنى الكرب .
أى : ثم لا يكن حالكم غماً كأننا عليكم بسبب مقامى فيكم وتذكيرى إياكم بآيات الله وقد أشار صاحب الكشف إلى هذين الوجهين فقال : فإن قلت : ما معنى الأمرين : أمرهم الذى يجمعونه ، وأمرهم الذى يكون عليهم غمة ؟

قلت : أما الأمر الأول ، فالقصد إلى إهلاكه . يعنى : فاجمعوا ما تريدون من إهلاكى ، واحتشدوا فيه ، وابذلوا وسعكم فى كيدى . وإنما قال ذلك ، لإظهارا لقلة مبالاته بهم ، وثقته بما وعده به ربه من كلامه وعصمته إياه ، وأنهم لن يجدوا إليه سبيلا .

وأما الثانى ففيه وجمان : أحدهما أن يراد مصاحبته لهم ، وما كانوا فيه معه من الحال الشديدة عليهم . المكرهه عندهم . يعنى : ثم أهلكونى لئلا يكون عيشكم بسببى غصة عليكم . وحالكم عليكم غمة . أى : غماوهم . والغم والغمة كالسكر والكربة .

والثانى أن يراد به ما أريد بالأمر الأول ، والغمة السخرة من غمه إذا ستره وفى الحديث : لا غمة فى فرائض الله ، أى لا نستر ولكن يجاهر بها . يعنى : ولا ليكن قصدكم إلى إهلاكى مستورا عليكم ، ولا يمكن مكشوفاً مشهوراً تجاهرونى به ، (١) .

وقوله : ثم اقضوا إلى ولا تنظرون ، زيادة فى تحديدهم وإثارتهم .

والقضاء هنا بمعنى الأداء ، من قولهم : قضى المدين للدائن دينه ، إذا أداه إليه ، وقضى فلان الصلاة . أى أداها بعد مضى وقتها .

أى : ثم أدوا إلى ذلك الأمر الذى تريدون أدائه من إيذائى أو إهلاكى بدون إنظار أو إمهال :

وبصح أن يكون القضاء هنا بمعنى الحكم . أى : ثم احكموا على بما تريدون من أحكام ، ولا تتركوا إلى مهلة فى تنفيذها ، بل نفذوها على فى الحال .

فأنت ترى فى هذه الآية السكرية . كيف أن نوحاً - عليه السلام - كان

حتى نهاية الشجاعة في مخاطبته لقومه ، بعد أن مكث فيهم مامكث وهو يدعوهم إلى عبادة الله — تعالى — وحده .

فهو - أولا - يصارحهم بأنه ماض في طريقه الذي أمره الله بالمضى فيه ، وهو تفكيرهم بالدلائل الدالة على وحدانية الله ، وعلى وجوب إخلاص العبادة له ، سواء أشق عليهم هذا التفكير أم لم يشق ، وأنه لا اعتماد له على أحد إلا على الله وحده .

وهو - ثانيا - يتحداهم بأن يجمعوا أمرهم وأمر شركائهم ، وأن يأخذوا أهبيتهم لسكرته وحربه .

وهو - ثالثا - يطالبهم بأن يتخذوا قراراتهم بدون تستر أو خفاء ، فإن الأمر لا يحتاج إلى غموض أو تردد ، لأن حاله معهم قد أصبح واضحا وصرىحا وهو - رابعا - يأمرهم بأن يبلغوه ما توصلوا إليه من قرارات وأحكام ، وأن ينفذوها عليه بدون تريث أو انتظار ، حتى لا يتركوا له فرصة للاستعداد للنجاة من مكرهم ...

وهكذا نرى نوحا - عليه السلام - يتحدى قومه تحديا صريحا مثيرا ، حتى إنه ليغريهم بنفسه ، ويفتح لهم الطريق لإبذائه وإهلاكه ، — إن استطاعوا ذلك — .

وما لجأ - على السلام - إلى هذا التحدى الواضح المثير ، إلا لأنه كان معتمدا على الله - تعالى - الذي تتضائل أمام قوته كل قوة وتهاوى إزاء سطوته كل سطوة ، ويتصاغر كل قدير وتقدير أمام تديره وتقديره .

وهكذا نرى القرآن الكريم يسوق المدعاة في كل زمان ومكان تلك المواقف المشرقة لرسول الله — عليهم الصلاة والسلام — لكي يقتدوا بهم في شجاعتهم ، وفي إعتادهم على الله وحده ، وفي ثباتهم أمام الباطل ، مهما بلغت قوته ، واشتد جبروته .

ومتى فعلوا ذلك ، كانت العقاب لهم ، لأنه - سبحانه - تعهد أن ينصر
من ينصره .

ولننص مع القصة حتى النهاية لنرى الدلائل على ذلك ، فقد حكى - سبحانه -
ما دار بين نوح وبين قومه بعد هذا التحدى السافر لهم فقال :

« فإن توليتم ، أى : فإن أعرضتم - أيها الناس - عن قولى ، وعن تذكىرى
إياكم بآيات الله بعد وقوفكم على أمرى وعلى حقيقة حالى ، فما سألتكم من أجر
أى : فأنى ما سألتكم فى مقابل تذكىرى لكم ، أو دعوتى إياكم إلى الحق ،
من أجر تؤدونه لى - وإن أجرى إلا على الله ، وحده ، فهو الذى يثيبنى على
قولى وعملى ، وهو الذى يعطينى من الخير ما يغنينى عن أجركم وعطائكم ،
وهو - سبحانه - الذى أمرنى أن أكون من المسلمين ، أى : المنقادين
لأمره ، المتبعين لهديه ، المستسلمين لقضائه وقدره .

ثم بين - سبحانه - العقاب الطيبة التى آل إليها أمر نوح - عليه السلام ،
والعاقبة السيئة التى انتهى إليها حال قومه فقال : « فكذبوه ، أى : فكذب
قوم نوح نبيهم نوحاً بعد أن دعاهم إلى الحق ليلاً ونهاراً ، وسراً وعلافة ،

فماذا كانت نتيجة هذا التكذيب ؟ كانت نتيجة كما حكته السورة الكريمة
« فنجيناه ومن معه فى الفلك ، أى : فنجينا نوحاً ومن معه من المؤمنين ، بأن
أمرناهم أن يركبوا فى السفينة التى صنعوها بأمر الله ، حتى لا يغرقهم
الطوفان الذى أغرق المكذبين .

وقوله : « وجعلناهم خلائف ، أى : وجعلنا هؤلاء الناجين خلفاء فى الأرض
لأولئك المفرقين ، الذين كذبوا نبيهم نوحاً - عليه السلام - وعموا وصموا
عن الحق الذى جاءهم به ، ودعاهم إليه .

هذه هى عاقبة نوح - عليه السلام - الذى كذب - فقد بينا - سبحانه -

في قوله : د وأغرقتنا الذين كذبوا بآياتنا ، أى : وأغرقتنا بالطوفان الذين كذبوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا .

د فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ، أى : فانظر وتأمل - أيها العاقل - كيف كانت نتيجة تكذيب هؤلاء المنذرين الذين لم تنفع معهم النذرو والآيات التي جاءهم بها نبيهم نوح - عليه السلام - .

فالمراد بالأمر بالنظر هنا : التأمل والاتعاظ والاعتبار ، لا مجرد النظر الخالي عن ذلك .

وهكذا نجد أن من العبر والعظات التي من أجلها ساق الله - تعالى - أمر نوح - عليه السلام - بهذه الصورة الموجزة هنا : إبراز ما كان عليه نوح - عليه السلام - من شجاعة وقوة وهو يبلغ رسالة الله إلى الناس ، واعتماده التام على خالقه ، وتوكله عليه وحده ، وتحديه السافر للمكذبين الذين وضعوا العراقيل والعقبات في طريق دعوته ، ونحريضه لهم بمثيرات القول على مهاجمته إن كان في إمكانهم ذلك ، ومصارحته لهم بأنه في غي عن أموالهم لأن خالقه - سبحانه - قد أغناهم عنهم ، وبيان أن سنة الله لا تتخلف ولا تبدل . وهذه السنة تتمثل في أنه - سبحانه - قد جعل حسن العاقبة للمؤمنين وسوء العاقبة للمكذبين .

ثم حكمت السورة السكرية أن الله - تعالى - قد أرسل رسلا كثيرين بعد نوح - عليه السلام - فكان موقف أقوامهم منهم مشابها لموقف قوم نوح منه ، فقال - تعالى - :

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ

رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾

أى : ثم بعثنا من بعد نوح - عليه السلام - رسلا كثيرين ذوى قدر عظيم

إلى أقوامهم ، ليخرجوهم من ظلمات الكفر إلى الإيمان ، فهود - عليه السلام - أرسلناه إلى قوم عاد ، وصالح - عليه السلام - أرسلناه إلى ثمود ، وهكذا أرسلنا رسلا كثيرين إلى أقوامهم .

وقوله : « فجاؤهم بالبينات ، أى : فأتى كل رسول قومه بالمعجزات الواضحات ، وبال الحجج الساطعات الدالة على صدقه فيما يبلغه عن ربه .

وقوله : « فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ، بيان لموقف هؤلاء الأقسام الجاحدين من رسلهم الذين جاءوا لهدايتهم وسعادتهم .

والمفسرين فى معنى هذه الجملة الكريمة أقوال :

فمنهم من يرى أن الضمائر فى « كانوا ، ويؤمنوا ، وكذبوا ، تعود على أقوام الرسل الذين جاءوا من بعد نوح - عليه السلام - ، وأن المراد بقوله « من قبل ، : أى من قبل مجىء الرسل إليهم .

والمعنى على هذا رأى : ثم بعثنا من بعد نوح - عليه السلام - رسلا كثيرين إلى أقوامهم فجاءوا بالمعجزات الدالة على صدقهم ، إلا أن هؤلاء الأقسام الأشقياء . استمروا على كفرهم وعنادهم ، وامنعوا عن الإيمان بما كذبوا به من قبل مجىء الرسل إليهم ، وهو إفراد الله - تعالى - بالعبادة والطاعة فكان حالهم فى الأصرار على الكفر والجحود قبل مجىء الرسل إليهم ، كحالهم بعد أن جاءهم بالهدى ودين الحق ، حتى لكانهم لم يأنهم من بشير ولا نذير .

ومن المفسرين الذين قالوا بهذا رأى الإمام البيضاوى فقد قال : قوله : « فما كان ليؤمنوا ، أى : فما استقام لهم أن يؤمنوا أشدة شكيمتهم فى الكفر ، وخذلان الله إليهم .. بما كذبوا به من قبل ، أى بسبب تعودهم تكذيب الحق ، وتمرنهم عليه « قبل بعثة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - ، (١) .

(١) تفسير البيضاوى ج ١ ص ٤٥٤ . طبعة مصطفى الحلبي - الطبعة

ومنهم من يرى - أيضاً - أن الضمائر تعود على أقوام الرسل الذين جاءوا من بعد نوح - عليه السلام - إلا أن المراد بقوله « من قبل » : أى : من قبل ابتداء دعوة الرسل هؤلاء الأقوام .

وعليه يكون المعنى : ثم بعثنا من بعد نوح - عليه السلام - رسلاً كثيرين إلى أقوامهم ، فجاءوهم بالادلة الواضحة الدالة على صدقهم ، إلا أن هؤلاء الأقوام قابلوا رسلهم بالكذب من أول يوم ، واستمروا على ذلك حتى آخر أحوالهم معهم ، فكان تكذيبهم لهم من قبل . أى : فى أول مجيئهم إليهم .

ومن المفسرين الذين قالوا بهذا رأى : الإمام ابن كثير فقد قال قوله : « فما كان ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل » ، أى : فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم ، بسبب تكذيبهم لإبائهم أول من أرسلوا إليهم ، كما قال - تعالى - : « ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة » (١) .

ومنهم من يرى أن الضمير فى قوله « كانوا ويؤمنوا » ، يعود على أقوام الرسل الذين جاءوا من بعد نوح - عليه السلام - وأن الضمير فى قوله « كذبوا » ، يعود إلى قوم نوح ، وعلى هذا رأى يكون المعنى .

ثم بعثنا من بعد نوح - عليه السلام - رسلاً إلى أقوامهم . فجاءوا بالآيات البينات الدالة على صدقهم ، ولكن هؤلاء الأقوام استمروا فى كفرهم وعنادهم ، وأبو أن يؤمنوا بوحداية الله التى كذب بها قوم نوح من قبل .

ومن المفسرين الذين قالوا بهذا رأى الإمام ابن جرير فقد قال قوله : « فما كانوا ليصدقوا بما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل » ، يقول : « فما كانوا ليصدقوا بما

جاءتهم به رسالهم، وبما كذب به قوم نوح، ومن قبلهم من الأمم الخالية... (١). وعلى أية حال فهذه الأقوال الثلاثة، تدل على أن هؤلاء الأقوام عموا وصموا عن الحق، واستمروا على ذلك دون أن تحوّلهم الآيات البينات التي جاءهم بها الرسل عن عنادهم وضلالهم.

وقوله: (كذلك نطبع على قلوب المعتدين) بيان لسنة الله - تعالى - في خلقه التي لا تتخلف ولا تبدل. والطبع: الختم والاستيثاق بحيث لا يخرج من الشيء ما دخل فيه، ولا يدخل فيه ما خرج منه.

أى: مثل ذلك الطبع المحكم نطبع على قلوب المعتدين المتجاوزين للحدود في الكفر والجحود، وذلك بخذلانهم، وتخليتهم وشأنهم، لانهما كهم في الغواية والضلال.

ثم سافت السورة الكريمة بعد ذلك، جانباً من قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وملئه، فبدأت بحكاية بعض المحاورات التي دارت بينه وبينهم، فقال - تعالى - :

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ

بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا

وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا

إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ

أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا

وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ

لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

وقوله - سبحانه - (ثم بعثنا ...) معطوف على ما قبله وهو قوله: (ثم بعثنا من بعده رسلا إلى قومهم ...) من باب عطف القصة على القصة ، وهو من قبيل عطف الخاص على العام ؛ لما في هذا الخاص من عبر وعظات . والمعنى : ثم بعثنا من بعد هؤلاء الرسل الكرام الذين جاءوا لأقوامهم بالأدلة والبيّنات ، (موسى وهارون عليهما السلام .. إلى فرعون) الذي قال لقومه (أنا ربكم الأعلى) وإلى (ملته) أى : خاصته وأشرف مملكته وأركان دولته ، ولذلك اقتصر عليهم ، لأن غيرهم كالتابع لهم .
(بآياتنا) أى : بعثناهم إليهم مؤيدين بآياتنا ، الدالة على قدرتنا ووحدايتنا وعلى صدقهما فيما يبلغاه عنا من هدايات وتوجيهات .

ويرى كثير من المفسرين أن المراد بقوله (بآياتنا) الآيات التسع التى جاء ذكرها فى قوله تعالى فى سورة الإسراء : ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات (١) .

قال الجمل : وتقدم فى الأعراف منها ثمانية . ثلثان فى قوله - تعالى - فألقى موسى عصاه فإذا هى ثعبان مبين (٢) ، وقوله : ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين (٣) .

وواحدة فى قوله - تعالى - : ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعالم يذكرون (٤) ، وخمسة فى قوله - تعالى - : فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم (٥) ، والتاسعة فى هذه السورة - سورة يونس - فى قوله - تعالى - : ربنا أطمس على أموالهم (٦) .

(١) الآية ١٠١ (٢) الآية ١٠٧ (٣) الآية ١٠٨

(٤) الآية ١٠٤ (٥) الآية ١٣٣

(٦) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٣١٥ .

ثم بين - سبحانه - موقف فرعون وملته من دعوة موسى لهم فقال :
« فاستكبروا وكافوا قوما مجرمين » .

والاستكبار : إدعاء الكبر من غير استحقاق ، والفاء فصيحة ، والتقدير :
ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل موسى وهارون إلى فرعون وملته ، فأنيهم
ليبلغاهم دعوة الله ، ويأمرانهم بإخلاص العبادلة له ، فاستكبروا عن طاعتهم ،
وأعجبوا بأنفسهم ، وكانوا قوما شأنهم ودينهم الإجمام ، وهو إرتكاب
ما عظم من الذنوب ، وقبح من الأفعال .

ورحم الله صاحب الكشف فقد قال عند تفسيره لهذه الجملة : فاستكبروا
عن قبولها ، وهو أعظم الكبر أن يتهاون العبيد برسالة ربهم بعد تبينها ،
ويتعظموا عن قبلها (١) .

ثم بين - سبحانه - ما تفوهوا به من أباطيل عند ما جاءهم موسى بدعوته
عقال : « فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين » .
أى : فلما وصل إليهم الحق الذى جاءهم به موسى - عليه السلام - من
عندنا لا من عند غيرنا ، قالوا ، على سبيل العناد والحقد والغرور ، إن هذا
الذى جئت به يا موسى لسحر مبين ، أى : لسحر واضح ظاهر لا يحتاج إلى
تأمل أو تفكير .

والتعبير بقوله « جاءهم » يفيد أن الحق قد وصل إليهم بدون تعب منهم ،
فكان من الواجب عليهم - لو كانوا يعقلون - أن يتقبلوه بسرور واقتناع .
وفى قوله « من عندنا » تصوير لشناعة الجريمة التى ارتكبوها فى جانب
الحق ، الذى جاءهم من عند الله - تعالى - لا من عند غيره .

والمراد بالحق هنا : الآيات والمعجزات التى جاءهم بها موسى - عليه السلام -
لتكون دليلا على صدقه فيما يبلغه عن ربه .

(١) تفسير الكشف ج ٢ ص ٢٦٤ .

(م - ١٠ - سورن يونس)

وقولهم - كما حكى القرآن عنهم - « إن هذا لسحر مبين » ، بالقسم المؤكدة يدل على تبجحهم الذميمة ، وكذبهم الآثيم ، حيث وصفوا الحق الذي لا باطل معه ، بأن سحر واضح ، وهكذا عندنا تقسو القلوب ، وتفسق النفوس ، تتحول الحقائق في زعمها إلى أكاذيب وأباطيل .

ثم حكى القرآن الكريم رد موسى - عليه السلام - على مفترياتهم فقال :
« قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون » .

وفي الآية الكريمة كلام محذوف دل عليه المقام : والتقدير :

قال موسى لفرعون وملئه منكمرا عليهم غرورهم وكذبهم ، « أتقولون للحق ، الذي هو أبعد ما يكون عن السحر ، حين مشاهد تكلم له .

أتقولون عنه ، إن هذا لسحر مبين » .

ياسبحان الله ! أفلا عقل لكم يحجزكم عن هذا القول الذي يدل على الجلالة والغباء ، انظروا وتأملوا أسحر هذا الذي ترون حقيقته بأعينكم ، وترجف من عظمتة قلوبكم ، والحال أنه « لا يفلح الساحرون ، في أى عمل من شأنه أن يهدى إلى الخير والحق .

فقد حذف جملة « إن هذا لسحر مبين ، لدلالة قوله « أسحر هذا ، عليها .
قال صاحب الكشف : فإن قلت : هم قطعوا بقولهم : إن هذا لسحر مبين على أنه سحر فكيف قيل لهم أتقولون : أسحر هذا ؟

قلت : فيه أوجه : أن يكون معنى قوله : « أتقولون للحق » : أتعيبونه وتطعنون فيه ، وكان عليهم أن تدعوا له وتعظموه ، من قولهم : فلان يخاف القالة ، وبين الناس تفاؤل ، إذا قال بعضهم لبعض مايسوءه . . .

وأن يحذف مفعول أتقولون وهو ما دل عليه قولهم : إن هذا لسحر مبين ، كأنه قيل : أتقولون ما تقولون : يعنى قولهم : إن هذا لسحر مبين - ثم قيل : أسحر هذا ؟

وأن يكون جملة قوله «أسحر هذا ولا يفلح الساحرون» حكاية لكلامهم ،
 كأنهم قالوا . أجتئنا بالسحر تعلمان به الفلاح ولا يفلح الساحرون... (١)
 وقال الجمل : قوله — تعالى — « قال موسى أتقولون ... ، أى : قال
 جملا ثلاثة : الأولى : « أتقولون للحق لما جاءكم » ، والثانية « أسحر هذا »
 والثالثة (ولا يفلح الساحرون) .

وقوله (لالحق) أى فى شأنه ولا جله ، وقوله (لما جاءكم) أى : حين مجيئه
 إياكم من أول الأمر من غير تأمل وتدبر ، وهذا مما ينافى القول المذكور .
 وقوله : (قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم) هذا مقول القول خذف
 لدلائله ما قبله عليه ، وإشارة إلى أنه لا يذبحى أن يتفوه به .

وقوله — سبحانه — حكاية عن موسى أسحر هذا (مبتدأ وخبر ، وهو
 إستفهام لإنكار مستأنف من جهته — عليه السلام — تكذيبا لقولهم ،
 وقويخا لمرئ توبيخ ، وتجهيلا بعد تجهيل) (٢) .

وقوله : (ولا يفلح الساحرون) جملة حالية من ضمير المخاطبين ، وقد جىء
 بها تأكيداً للإنكار السابق ، وما فيه من معنى التوبيخ والتجهيل .
 أى أتقولون للحق أنه سحر ، والحال أنه لا يفلح فاعله ، أى : لا يظفر
 بمطلوب ، ولا ينجو من مكروه ، وأنا قد أفلمحت ، وفزت بالحجة ، ونجوت
 من الهلكة .

ثم كشف القرآن الكريم عن حقيقة الدوافع التى جعلتهم يصفون الحق
 بأنه سحر مبين فقال — تعالى — : (قالوا أجتئنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا
 وتكون لنا الكبرياء فى الأرض ، وما نحن لكما بمؤمنين) .

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٢٤٧ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٣٦٥ .

واللآفت : الصرف واللى . يقال : لفته يلفته لفتا ، أى : صرفه عن وجهته إلى ذات اليمين أو الشمال .

أى : قال فرعون وملؤه لموسى — عليه السلام — بعد أن جاءهم بالحق المبين : أجتئنا ياموسى بما جئتنا به (لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا) أى : لنصرفنا عن الدين الذى وجدنا عليه آباءنا ، وتكون لك ولأخيك هارون (الكبرياء فى الأرض) أى السيادة والرياسة والزعامة الدينية والدنيوية فى الأرض بصفة عامة ، وفى أرض مصر بصفة خاصة .

ثم أكدوا إنكارهم لما جاءهم به موسى — عليه السلام — من الدين الحق فقالوا — كما حكى القرآن عنهم — (وما نحن لكما بمصدقين فيما جئنا به ، لأن تصديقنا لكما يخرجنا عن الدين الذى وجدنا عليه آباءنا ، وينزع منا ملكنا الذى تتمتع بكبريائه خاضعنا ، وتعيش تحت سلطانه وقره عامتنا .

وأفردوا موسى — عليه السلام — بالخطاب فى قولهم (أجتئنا لتلفتنا . .) ، لأنه هو الذى كان يجابههم بالحجج التى تقطع دابر باطلهم ، ويرد على أكاذيبهم بما يفضحهم ويكشف عن غرورهم وغباوتهم .

وجمعوا بين موسى وهارون — عليهما السلام — فى قولهم (وتكون لكما الكبرياء فى الأرض ، وما نحن لكما بمؤمنين) باعتبار شمول الكبرياء والرياسة والملك لهما ، وباعتبار أن الإيمان بأحدهما يستلزم الإيمان بالآخر . هذا ، والذى يتدبر هذه الآية الكريمة ، يرى أن التهمة التى وجهها فرعون وملؤه إلى موسى وهارون — عليهما السلام — ، هى تهمة قديمة جديدة تقوم فوح — مثلا — يتمتعون عن قبول دعوته ، لأنه فى نظرهم جاء بما جاء به بقصد التفضل عليهم ، وفى هذا يقول القرآن الكريم : (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، أفلا تتقون . فقال

الملا الذين كفروا من قومه ، ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم (١) -
أى : يريد أن تكون له السيادة والفضل عليكم ، فيكون زعيما وأنتم له تابعون .
ولقد أفاض فى شرح هذا المعنى صاحب الظلال - رحمه الله - عند
تفسيره لهذه الآية الكريمة فقال ما ملخصة :

ولأن فهو الخوف من تحطيم معتقداتهم الموروثة ، التى يقوم عليها
نظامهم السياسى والاقتصادى ، وهو الخوف على السلطان فى الأرض ، هذا
السلطان الذى يستمدونه من خرافات عقائدهم الموروثة .

لأنها العلة القديمة الجديدة ، التى تدفع بالطغاة إلى مقاومة دعوات الإصلاح
ورمى الدعاة بأشنع التهم ؛ والفجور فى مقاومة الدعوات والدعاة .. لأنها هى
(الكبرياء فى الأرض) وما تقوم عليه من معتقدات باطلة ، يحرص المتجبرون
على بقائها متحجرة فى قلوب الجماهير ، بكل ما فيها من زيف وفساد ، وأوهام
وخرافات ، لأن تفتح القلوب على العقيدة الصحيحة ، خطر على القيم
الجاهلية الموروثة . . .

وما كان رجال من أذكىاء قريش - مثلا - ليخطئوا إدراك ما فى رسالة
محمد - صلى الله عليه وسلم - من صدق وسمو ، وما فى عقيدة الشرك من
تهافت وفساد ، وليكنهم كانوا ينشون على مكائهم الموروثة ، القائمة على
ما فى تلك العقيدة من خرافات وتقاليد ، كما خشى الملا من قوم فرعون على
سلطانهم فى الأرض ، فقالوا متعجبين (وما نحن لك بمؤمنين) (٢) .

ثم حكى الآيات الكريمة بعد ذلك ما طلبه فرعون من ملئه ، وما دار
بين موسى - عليه السلام - وبين السحرة من محاورات فقال - تعالى - :

(١) سورة المؤمنون الآيتان ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) تفسير (فى ظلال القرآن) الأستاذ سيد قطب ح ١١ ص ٤٦٦ .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾

فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا
أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا
يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ
كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾

أى : وقال فرعون لخاصته بعد أن رأى من موسى الإصرار على دعوته
ودعوة قومه إلى عبادة الله وحده ، وبعد أن شاهد عصاه وقد تحولت إلى
ثعبان مبين .

قال فرعون لخاصته بعد أن رأى كل ذلك من موسى - عليه السلام -
« أتوني ، أيها الملاح ، بكل ساحر عليم » ، أى : بكل ساحر من أفراد عالمك
تسكون عنده المهارة التامة فى فن السحر ، والخبرة الواسعة بطرقه وأساليبه .
وقوله : فلما جاء السحرة ... ، معطوف على كلام محذوف يستدعيه المقام
والتقدير ، فامثل القوم أمر فرعون وأسرعوا فى إحضار السحرة ، فلما جاءوا
والتقوا بموسى - عليه السلام - وخبروه بقولهم « إما أن تلقى وإما أن
نكون أول من ألقى » .

(قال لهم موسى) على سبيل التحدى (ألقوا ما أنتم ملقون) من ألوان
سحركم ليرى الناس حقيقة فعلكم ، وليميزوا بين حقى وباطلكم .

(فلموا ألقوا) أى : فلما ألقى السحرة حبالهم وعصيهم ...

(قال) لهم (موسى) على سبيل السخرية بما صنعوه .

(ما جئتم به السحر إن الله سيبطله ، إن الله لا يصلح عمل المفسدين)
أى : قال لهم موسى : أيها السحرة ، إن الذى جئتم به هو السحر بعينه ،
وليس الذى جئت به أنا وما وصفه فرعون وملأه بأنه سحر مبين .

وإن الذى جئتم به سيمحقه الله ويزيل أثره من النفوس ، عن طريق ما أمرنى الله به
- سبحانه - من إلقاء عصاى ، فقد جرت سنته - سبحانه - أنه لا يصلح عمل

المفسدين وصنيعكم هذا هو من نوع الإفساد وايس من نوع الإصلاح .
وقوله : (ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون) تأكيد لسنة
الله - تعالى - في تنازع الحق والباطل ، والصالح والفساد .

أى : أنه جرت سنة الله تعالى - أن لا يصلح عمل المفسدين ، بل يحقه
ويبطله ، وأنه - سبحانه - يحق الحق أى يثبت ويؤيده ويؤيده بكلماته ،
النافذة ، وقضائه الذى لا يرد ، ووعده الذى لا يتخلف ، ولو كره المجرمون ،
ذلك لأن كراهيتهم لإحقاق الحق وإبطال الباطل ، لا تعطل مشيئة الله ، ولا
تحول بين تنفيذ آياته وكلماته ، وقد كان الأمر كذلك ، فقد أوحى الله إلى موسى : أن
ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون ، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . (١) .
ثم افتتحت السورة السكريمة للحديث عن جانب مما دار بين موسى - عليه
السلام - وبين قومه بنى إسرائيل ، إثر الحديث عن جانب مما دار بينه وبين
فرعون وملئه وسحرته فقال - تعالى - :

قَاءَ أَمِنْ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ
خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ .
وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَنْقُومُ إِن كُنتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ
فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا
رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِّنَ
الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا
لِقَوْمِكَ بِمِصْرَ بُيُوتًا وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾

قال الجمل : قوله - سبحانه - «فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه...»
لما ذكر الله - تعالى - ما أتى به موسى - عليه السلام - من المعجزات
العظيمة الباهرة ، أخبر - سبحانه - أنه مع مشاهدة هذه المعجزات ، ما آمن
لموسى إلا ذرية من قومه . وإنما ذكر الله هذا تسلياً لنبيه محمد - صلى الله
عليه وسلم - ، لأنه كان كثير الاهتمام بإيمان قومه ، وكان يغتم بسبب
إعراضهم عن الإيمان به ، واستمرارهم على الكفر والتكذيب ، فبين الله له
أن له أسوة بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ، لأن ما جاء به موسى من
المعجزات ، كان أمراً عظيماً ، ومع ذلك فما آمن له إلا ذرية من قومه (١) .

والآية الكريمة معطوفة على كلام محذوف يدل عليه السياق ، والتقدير :
نقد أتى موسى - عليه السلام - بالمعجزات التي تشهد بصدقه ، والتي على
رأسها ، أن أنقى عصاه فإذا هي تبتلع ما فعله السحرة ، ومع كل تلك البراهين
الدالة على صدقه ، فما آمن به إلا ذرية من قومه ...

والمراد بالذرية هنا : العدد القليل من الشباب ، الذين آمنوا بموسى ، بعد
أن تخلف عن الإيمان آباؤهم وأغنياؤهم .

قال الألوسي : قوله «إلا ذرية من قومه أى إلا أولاد بعض بنى إسرائيل
حيث دعا - عليه السلام - الآباء فلم يجيبوه خوفاً من فرعون ، وأجابته
طائفة من شبانهم . فالمراد من الذرية : الشبان لا الأطفال (٢) .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٢٦٧ .

(٢) تفسير الألوسي ج ١٢ ص ١٤٨ .

والضمير فى قوله « من قومه » يعود لموسى - عليه السلام - ، وعليه يكون المعنى :

فما آمن لموسى - عليه السلام - فى دعوته إلى وحدانية الله ، إلا عدد قليل من شباب قومه بنى إسرائيل ، الذين كانوا يعيشون فى مصر ، والذين كان فرعون يسومهم سوء العذاب ، أما آبائهم وأصحاب الجاه فيهم ، فقد انحازوا إلى فرعون طمعاً فى عطاائه ، وخوفاً من بعشه بهم .

ويرى بعض المفسرين أن الضمير فى قوله (من قومه) يعود إلى فرعون لا إلى موسى .

فيعكون المعنى : فما آمن لموسى إلا عدد قليل من شباب قوم فرعون . قال ابن كثير ما ملخصه مرجحاً هذا الرأى : (يخبر الله تعالى) - أنه لم يؤمن بموسى - عليه السلام - مع ما جاء به من الآيات والحجج ، إلا قليل من قوم فرعون ، من الذرية - وهم الشباب - ، على وجل وخوف منه ومن ملته .

قال العوفى عن ابن عباس : (إن الذرية التى آمنت لموسى من قوم فرعون منهم : امرأته ، ومؤمن آل فرعون ، وخازنه ، وامرأة خازنه .

ثم قال : واختار ابن جرير قول مجاهد فى الذرية ، أنها من بنى إسرائيل ، لأن قوم فرعون . لعود الضمير على أقرب مذكور .

وفى هذا نظر ، لأن من المعروف أن بنى إسرائيل كلهم آمنوا بموسى . واستبشروا به ، فقد كانوا يعرفون نعمته وصفته والبشارة به .

وإذا تقرر هذا فكيف يكون المراد إلا ذرية من قوم موسى وهم بنو إسرائيل ؟ (١) .

والذى نراه أن ما اختاره ابن جرير من عودة الضمير إلى موسى - عليه السلام - أرجح ، لأن هناك نوع خفاء فى إطلاق كلمة الذرية على من آمن من قوم فرعون ، ومنهم زوجته ، وامرأة خازنه .

ولأنه لا دليل على أن بنى إسرائيل كلهم قد آمنوا بموسى ، بل الحق أن منهم من آمن به ، ومنهم من كفر به ، كفارون والسامري وغيرهما .

ولأن رجوع الضمير إلى موسى - عليه السلام - هو الظاهر المتبادر من الآية ، لأنه أقرب مذكور ، وليس هناك ما يدعو إلى صرف الآية الكريمة عن هذا الظاهر .

ورحم الله ابن جرير فقد قال فى ترجيحه لما ذهب إليه من عودة الضمير إلى موسى - عليه السلام - ما ملخصه :

وأولى هذه الأقوال عندى بتأويل الآية ، القول الذى ذكرته عن مجاهد وهو أن الذرية فى هذا الموضع ، أريد بها ذرية من أرسل إليه موسى من بنى إسرائيل ، وإنما قلت هذا القول أولى بالصواب ، لأنه لم يحرف فى هذه الآية ذكر لغير موسى ، فلأن تكون الهاء فى قوله « من قومه » من ذكر موسى لقربها من ذكره أولى من أن تكون من ذكر فرعون ، لبعد ذكره منها .

ولأن فى قوله « على خوف من فرعون وملتهم » الدليل الواضح على أن الهاء فى قوله « إلا ذرية من قومه » من ذكر موسى لا من ذكر فرعون ، لأنها لو كانت من ذكر فرعون لكان الكلام على خوف منه ، ولم يكن على خوف من فرعون ... (١) .

وقوله : (على خوف من فرعون وملتهم أن يفتنهم ...) حال من كلمة (ذرية) ، و (على) هنا بمعنى مع . والضمير فى قوله (ملتهم) يعود إلى ملا .

الذرية ، وهم كبار بنى إسرائيل الذين لا ذوا بفرعون طمعا فى عطاياه أو خوفا
من عقابه أو لم يتبعوا موسى — عليه السلام — .

والضمير فى (يفتنهم) يعود إلى فرعون وخاصته ، لأنه هو الأمر بالتعذيب
ولأن الملائكة إنما كانوا يأتمرون بأمره ، وينتهون عن نهيه ، فهم كالآلة فى يده
يصرفها كيف يشاء .

وجملة (أن يفتنهم) فى تأويل مصدر ، بدل اشتغال من فرعون ، أى :
على خوف من فرعون فتنته .

وقوله : (وإن فرعون لعال فى الأرض وإنه لمن المسرفين) اعتراض
تذييلى يؤكد لمضمون ما قبله ، ومقرر لطغيان فرعون وعتوه .

أى : وإن فرعون لمتكبر متجبر فى أرض مصر كلها ، وإنه لمن المسرفين
المتجاوزين لكل حد فى الظلم والبغى وادعاء ما ليس له .

والمتجبرون والمسرفون يحتاجون فى مقاومتهم إلى إيمان عميق ، واعتماد
على الله وثيق ، وثبات يزيل المخاوف ويطمئن القلوب إلى حسن العاقبة ، ولذا
قال موسى لأتباعه المؤمنين : (يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن
كنتم مسلمين) .

أى قال موسى لقومه تطمئنا لقلوبهم ، وقد رأى الخوف من فرعون يعلو
وجوده بعضهم : يا قوم (إن كنتم آمنتم بالله) حق الإيمان ، وأسلمتم وجوهكم
له حق الإسلام . فعليه وحده اعتمدوا ، وبجناحه وحده تمسكوا ، فإن من توكل
على الله واتجه إليه ، كان الله معه بنصره وتأيدته .

ثم حكى القرآن جوابهم الذى يدل على صدق يقينهم فقال : فقالوا ، أى :
نجيبين لنصيحة نبيهم (على الله) وحده لا على غيره (توكلنا) واعتمدنا وفوضنا
أمورنا إليه .

(ربنا لا تجعلنا موضع فتنه)

وعذاب للقوم الظالمين . بأن تمكنهم منا فيسومونا سوء العذاب ، وعندئذ يعتقدون أنهم على الحق ونحن على الباطل ، لأننا لو كنا على الحق - في زعمهم - لما تمكنوا منا ، ولما انتصروا علينا .

ثم أضافوا إلى هذا الدعاء دعاء آخر ، أكثر صراحة من سابقه في المباعدة بينهم وبين الظالمين فقالوا (ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) .

أى : نحن لا نلتمس منك يا مولانا ألا تجعلنا فتنه لهم فقط ، بل نلتمس منك - أيضا - أن تنجنا من شرور القوم الكافرين ، وأن تخلصنا من سوء جوارهم ، وأن تفرق بيننا وبينهم كما فرقت بين أهل المشرق وأهل المغرب .

قال الإمام الشوكاني : وفي هذا الدعاء الذى تضرعوا به إلى الله - دليل على أنه كان لهم اهتمام بأمر الدين فوق اهتمامهم بسلامة أنفسهم (١) .
وبعد هذا الدعاء المخلص ، وجه الله - تعالى - نبيه موسى وأخاه هارون - عليهما السلام - إلى ما يوصل إلى نصرهما ونصر أتباعهما فقال - تعالى - (وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوأ لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة . . .)

وقوله (تبوأ) من النبوء وهو اتخاذ المباشرة أى المنزل ، كالتوطن بمعنى اتخاذ الوطن .

يقال بوائه وبوأت له منزلا إذا أنزلته فيه ، وهياتة له .

والمعنى : وأوحينا إلى موسى وأخيه هارون بعد أن لجج فرعون في طغيانه وفى إزال العذاب بالمؤمنين - أن اتخذوا لقومكما المؤمنين بيوتا خاصة بهم فى مصر ، ينزلون بها ، ويستقرون فيها ، ويعتزلون فرعون وجنده ، إلى أنه يقضى الله أمرا كان مفعولا .

وقوله : « واجعلوا بيوتكم قبله » ، أى : واجعلوا هذه البيوت التى حللتكم بها .
 مكانا لصلواتكم وعباداتكم ، بعد أن حال فرعون وجنده بينكم وبين أداء
 عباداتكم فى الأماكن المخصصة لذلك .

قال القرطبى : المراد صلوا فى بيوتكم سرا لتأمنوا ، وذلك حين أخافهم
 فرعون ، فأمروا بالصبر واتخاذ المساجد فى البيوت ، والإقدام على الصلاة ،
 والدعاء ، إلى أن ينجز الله وعده ، وهو المراد بقوله « قال موسى لقومه
 استعينوا بالله واصبروا ، وكان من دينهم أنهم لا يصلون إلا فى البيع
 والكنائس ما داموا على أمن ، فإذا خافوا فقد أذن لهم أن يصلوا فى
 بيوتهم ... » (١) .

وقوله : « وأقيموا الصلاة » ، أى : داوموا عليها ، وأدوها فى أوقاتها
 بخشوع وإخلاص ، فإن فى أدائها بهذه الصورة ، وسيلة إلى تفريج
 الكرب ، وفى الحديث الشريف : « كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
 إذا حزبه أمر صلى » .

وقوله « وبشر المؤمنين » ، تدبيل قصد به بعث الأمل فى نفوسهم متى
 أدوا ما كلفوا به .

أى : وبشر المؤمنين بالنصر والفلاح فى الدنيا ، وبالثواب الجزيل
 فى الآخرة .

قال صاحب الكشف : فإن قلت كيف نوع الخطاب فثنى أولا ، ثم جمع ،
 ثم وحد آخر ؟

قلت : خوطب موسى وهارون - عليهما السلام - أن يتبوأ لقومهما
 بيوتا ويختاراها للعبادة ، وذلك بما يفوض إلى الأنبياء . ثم سيق الخطاب

عاما لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها ، لأن ذلك واجب على الجمهور . ثم خص موسى - عليه السلام - بالبشارة التي هي الغرض تعظيما لها ، وللمبشر بها ، (١) .

ولأن بشارة الأمة - كما يقول الألوسي - وظيفة صاحب الشريعة وهي من الأعظم أسر وأوقع في النفس (٢) .

هذا ، ومن التوجيهات الحكيمة التي نأخذها من هذه الآية الكريمة ، أن يعين المؤمنين على النصر والفلاح ، أن يعتزلوا أهل الكفر والفسوق والعصيان ، إذا لم تنفع معهم النصيحة ، وأن يستعينوا على بلوغ غايتهم بالصبر والصلاة ، وأن يقيموا حياتهم فيما بينهم على المحبة الصادقة ، وعلى الأخوة الخالصة ، وأن يجعلوا توكلهم على الله وحده ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه . إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء قدرا .

ثم حكى القرآن الكريم بعد ذلك ، ما تضرع به موسى - عليه السلام - إلى الله - تعالى - من دعوات خاشعات ، بعد أن يش من إيمان فرعون وملئه فقال - سبحانه - :

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَا هَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

والزينة : اسم لما يتزين به الإنسان من ألوان اللباس وأواني الطعام

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٤٩ .

(٢) تفسير الألوسي ج ١١ ص ١٥٢ .

والشراب ، ووسائل الركوب . . . وغير ذلك ، مما يستعمله الإنسان في زينته ورفاهيته .

والمال : يشمل أصناف الزينة ، ويشمل غير ذلك مما يتملكه الإنسان .

والمعنى : وقال موسى - عليه السلام - مخاطباً ربه ، بعد أن فقد الأمل في إصلاح فرعون وملئه : يا ربنا إنك أعطيت فرعون وأشراف قومه وأصحاب الرياسات منهم ، الكثير من مظاهر الزينة والرفاهية والنعيم ، كما أعطيتهم الكثير من الأموال في هذه الحياة الدنيا .

وهذا العطاء الجزيل لهم ؛ قد يضعف الإيمان في بعض النفوس ، إما بالإغراء الذى يحدثه مظهر النعمة في نفوس الناظرين إليها ، وإما بالترهيب الذى يملكه هؤلاء المنعمون ، بحيث يصيرون قادرين على إذلال غيرهم .

واللام في قوله : ربنا ليضلوا عن سبيلك ، لام العاقبة والصيرورة أى : أعطيتهم ما أعطيتهم من الزينة والمال ، ليخلصوا لك العبادة والطاعة ، وليقابلوا هذا العطاء بالشكر ، ولكنهم لم يفعلوا بل قابلوا هذه النعم بالجحود والبطر ، فكانت عاقبة أمرهم الخسران والضلال ، فأذل يامولانا هذه النعم من بين أيديهم .

قال القرطبي : اختلف في هذه اللام ، وأصح ما قيل فيها - وهو قول الخليل وسيبويه - أنها لام العاقبة والصيرورة . وفي الخبر : «إن لله - تعالى - ملكاً ينادى كل يوم : لدوا للموت وابنوا للخراب ، أى : لما كان عاقبة أمرهم إلى الضلال ، صار كأنه أعطاهم ليضلوا ، (١) .

وقال صاحب المنار قوله : ربنا ليضلوا عن سبيلك ، أى : لتسكون عاقبة هذا العطاء إضلال عبادك عن سبيلك الموصلة إلى مرضاتك باتباع الحق والعدل والعمل الصالح ، ذلك لأن الزينة سبب التكبر والخيلاء والطغيان على

الناس ، وكثرة الأموال تمكنهم من ذلك ، وتخضع رقاب الناس لهم ، كما قال - تعالى - (إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) ...

فاللام في قوله « ليطغوا » تسمى لام العاقبة والصيرورة ، وهى الدالة على أن ما بعدها أمر وغاية فعلية متعلقها ، يترتب عليه بالفعل لا بالسببية ، ولا بقصد فاعل الفعل الذى تتعلق به كقوله - تعالى - « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا . . . » (١) .

ومنهم من يرى أن هذه اللام للتعليل ؛ والفعل منصوب بها ، فيكون المعنى :

وقال موسى مخاطباً ربه : ياربنا إنك قد أعطيت فرعون وملاه زينة وأموالاً فى الحياة الدنيا ، وإنك ياربنا قد أعطيتهم ذلك على سبيل الاستدراج ليزدادوا طغياناً على طغيانهم ، ثم تأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

وشبيه بهذه الجملة فى هذا المعنى قوله - تعالى - : « ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم ، إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين » (٢) .

وقد رجح هذا المعنى الإمام ابن جرير فقال : والصواب من القول فى ذلك عندى أنها لام كي ، ومعنى الكلام : ربنا أعطيتهم ما أعطيتهم من زينة الحياة الدنيا والأموال لتفتنهم فيه ، ويضلوا عن سبيلك عبادك عقوبة منك لهم ، وهذا كما قال جل ثناؤه « لأسقيناهم ماء غدقاً . لتفتنهم فيه . . . » (٣) .
ومنهم من يرى أن هذه اللام هى لام الدعاء ، وأنها للدعاء عليهم بالزيادة من الإضلال والغواية فيكون المعنى :

(١) تفسير المنار ج ١١ ص ٤٧٣ .

(١) سورة آل عمران الآية ١٧٨ .

(٣) تفسير ابن جرير ج ٧ ص ١٠٨ .

وقال موسى ياربنا إنك أعطيت فرعون وملائه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا اللهم ياربنا زدهم ضلالا على ضلالهم ...

وقد سار على هذا الرأى صاحب الكشف . فقد قال ما ملخصه : فإن خلقت ما معنى قوله : د ليضلوا عن سبيلك ،

قلت : هو دعاء بلفظ الأمر كقوله : ربنا اطمس واشدد . وذلك أنه لما عرض عليهم آيات الله وبيناته عرضا مكررا ، وردد عليهم النصائح والمواعظ زمانا طويلا . وحذرهم من عذاب الله ومن انتقامه ، وأفذرهم سوء عاقبة ما كانوا عليه من الكفر والضلال ، ورآهم لا يزيدون على عرض الآيات إلا كفرا ، وعلى الإنذار إلا إستكبارا ، وعن النصيحة إلا نبوا ، ولم يبق له مطمع فيهم ، وعلم بالتجربة وطول الصحبة أو بوحي من الله ، أنه لا يحى منهم إلا الفى والضلال ...

لما رأى منهم كل ذلك : اشتد غضبه عليهم ، وكره حالهم ، فدعا الله عليهم بما علم أنه لا يكون غيره وهو ضلالهم ...

فكانه قال : ليشتوا على ما هم عليه من الضلال ... (١) .

وعلى أية حال فهذه الأقوال الثلاثة ، لكل واحد منها إتجاهه فى التعبير عن ضيق موسى - عليه السلام - لإصرار فرعون وشيعته على الكفر ، ولما هم فيه من نعم لم يقابلوها بالشكر ، بل قابلوها بالاجحود والبطر ..

وإن كان للرأى الأول هو أظهرها فى الدلالة على ذلك ، وأقربها إلى سياق الآية الكريمة .

قال الشوكانى : قرأ الكوفيون د ليضلوا ، بضم الياء . أى ليوقعوا

(١) تفسير الكشف ج ٢ ص ٢٥ .

الإضلال على غيرهم . وقرأ الباقر بالفتح أى يضلون فى أنفسهم (١) .

وقوله : « ربنا اطمس على أموالهم ، واشدد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الآليم ، دعا عليهم بما يستحقونه من عقوبات بسبب إصرارهم على الكفر والضلal .

والطمس : الإهلاك والإتلاف ومحو أثر الشئ . يقال : طمس الشئ . ويطمس طموحاً إذا زال بحيث لا يرى ولا يعرف لذهاب صورته . والشد : الربط والطبع على الشئ . بحيث لا يخرج منه ما هو بداخله ، ولا يدخل فيه ما هو خارج عنه .

والمعنى : وقال موسى مخاطباً ربه : يا ربنا إنك آتيت فرعون وملائه زينة وأموالاً فى الحياة والدنيا ، وقد أعطيتهم ذلك ليشكروك ، ولكنهم لم يفتعلوا ، بل قابلوا عطاءك بالجحود ، اللهم يا ربنا « اطمس على أموالهم ، بأن تهلكها وتزيلها وتمحقها من بين أيديهم ، حتى ترحم عبادك المؤمنين ، من سوء استعمال الكافرين لنعمك فى الإفساد والأذى .

« واشدد على قلوبهم ، بأن تزيدها قسوة على قسوتها ، وعناداً على عنادها ، مع استمرارها على ذلك ، حتى يأتيهم العذاب الآليم الذى لا ينفع عند إقيانه إيمان ، ولا تقبل معه توبته ، لأنهما حدثا فى غير وقتها .

قال الجمل : وهذا الطمس هو أحد الآيات التسع التى أوتىها موسى — عليه السلام — (٢) .

وقال الإمام ابن كثير : وهذه الدعوة كانت من موسى — عليه السلام — غضباً لله — تعالى — ولدينه على فرعون وملئه ، الذين تبين له أنه لا خير

(١) تفسير « فتح القدير » الإمام الشوكانى ج ٢ ص ٤٧٠ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ٣٧٠ .

فيهم ، كما دعا نوح - عليه السلام - على قومه فقال : (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ...) ولهذا استجاب الله - تعالى - لموسى - عليه السلام - هذه الدعوة فيهم .. (١) .

فقال : (قال قد أجيب دعوتكما فاستقيما ، ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) .

أى : قال الله - تعالى - لموسى وهارون عليهما السلام - : أبشرا فقد أجبت دعوتكما فى شأن فرعون وملئه فاستقيما ، على أمرى ، وامضيا فى دعوتكما الناس إلى الحق ، واثبتا على ما أنتما عليه من الإيمان بى ، والطاعة لأمرى ..

« ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ، ما جرت به سنتى فى خلقى ، ولا يدركون طريق الخير من طريق الشر .

وكان الجواب من الله - تعالى - لموسى وهارون . مع أن الداعى موسى فقط كما صرحت الآية السابقة ، لأن هارون كان يؤمن على دعاء أخيه موسى والتأمين لون من الدعاء .

هذا . ومن الحسكهم والعظاى التى ناخذها من هاتين الآيتين الكريمتين : أن من علامات الإيمان الصادق . أن يكون الإنسان غيورا على دين الله ، ومن مظاهر هذه الغيرة أن يتمنى زوال للنعمة من بين أيدي المصيرين على جحودهم وفسوقهم وبطورهم لأن وجود النعم بين أيديهم كثيرا ما يكون سببا فى إيهاء المؤمنين ، وإدخال القلق والحيرة على نفوس بعضهم ...

وأن الداعى متى توجه إلى الله - تعالى - بقلب سليم ، ولسان صادق ، كان دعاؤه مرجو القبول عنده - سبحانه -

ثم ختم - سبحانه - قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون في هذه السورة
الكريمة ، ببيان سنه من سنه التي لا تتخلف ، وهي حسن عاقبة المؤمنين وسوء
عاقبة المكذبين فقال - تعالى -

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ
فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ
أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾
ءَالْعَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُجَذِّبُكَ
بِبَدْنِكَ لِنَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ
ءَايَاتِنَا لَغَفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبَوءًا صَدَقَ
وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ
يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

قوله - سبحانه - د وجاوزنا ، هو من جاوز المكان ، إذا قطعه وتخطاه
وخلفه وراء ظهره . وهو متعد بالباء إلى المفعول الأول الذي كان فاعلا في
الأصل ، وإلى الثاني بنفسه .

والمراد بالبحر هنا : بحر القلزم ، وهو المسمى الآن بالبحر الأحمر .
وقوله د بغيا وعدوا ، أى ظلما واعتداء . يقال بغى فلان على فلان بغيا ، إذا
تطاول عليه وظلمه . ويقال : عدا عليه عدوا وعدوانا إذا سلبه حقه .
وهما مصدران منصربان على الحالية بتأويل اسم الفاعل . أى : باغين
وعاديين . أو على المفعولية لأجله أى : من أجل البغى والعدوان .
والمعنى : وجاوزنا بني إسرائيل البحر ، وهم تحت رعايتنا وقدرتنا ، حيث
جعلناه لهم طريقا يسرا ، فساروا فيه حتى بلغوا نهايته ، فأتبعهم فرعون وجنوده
لا لطلب الهداية والإيمان ، ولكن لطلب البغى والعدوان .

قال الآلوسى : وذلك أن الله - تعالى - لما أخبر موسى وهارون - عليهما السلام - بإجابته دعوتهما ، أمرهما بإخراج بنى إسرائيل من مصر ليلا ، فخرجوا بهم على حين غفلة من فرعون وملئه ، فلما أحس بذلك ، خرج هو وجنوده على أثرهم مسرعين ، فالتفت القوم فإذا الطامة الكبرى وراهم ، فقالوا يا موسى ، هذا فرعون وجنوده ورائنا ، وهذا البحر أمامنا فكيف الخلاص ، فأوحى الله - تعالى - إلى موسى ، أن اضرب بعصاك البحر ، فضربه فانفلق اثني عشر فرقا كل فرق كالطود العظيم ، وصار لكل سبط طريق فسلموا ، ووصل فرعون ومن معه إلى الساحل وبنى إسرائيل قد خرجوا من البحر ومسلمهم باق على حاله ، فسلمه فرعون وجنوده ، فلما دخل آخرهم وهم أولهم بالخروج من البحر ، انطبق عليهم وغشيهم من اليم ما غشيهم (١) . ثم حكى - سبحانه - ما قاله فرعون عندما نزل به قضاء الله الذى لا يرد فقال - تعالى - : « حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين » .

أى : لقد أتبع فرعون وجنوده بنى إسرائيل بغيا وعدوا ، فانطبق عليه البحر ، ولفه تحت أمواجه ولججه ، حتى إذا أدركه الغرق وعان الموت وأيقن أنه لا نجاة له منه ، قال آمنت وصدقت . بأنه لا معبود بحق سوى الإله الذى آمنت به بنو إسرائيل ، وأنا من القوم الذين أسلموا نفوسهم لله وحده وأخلصوها لطاعته .

ولما كان هذا القول قد جاء فى غير أوانه ، وأن هذا الإيمان لا ينفع لأنه جاء عند معاينة الموت ، فقد رد الله - تعالى - على فرعون بقوله - سبحانه - « الآن وقد عصيت قبل ، وكنت من المفسدين » .

أى : الآن تدعى الإيمان حين ينست من الحياة ، وأيقنت بالموت ، والحال أنك كنت قبل ذلك من العصاة المفسدين فى الأرض ، المصرين على

تكذيب المحق الذي جاءك به رسولنا موسى - عليه السلام - والظارف
« الآن ، متعلق بمحذوف متأخر ، والإستفهام للتقريع والتوبيخ والإنكار .
وقوله : « وقد عصيت قبل ، جملة حالية من فاعل الفعل المقدر ، أى :
الآن تدعى الإيمان والحال أنك عصيت قبل وكنت من المفسدين .

قال الإمام ابن كثير : وهذا حكاية الله - تعالى - عن فرعون من قوله
هذا فى حاله ذاك : من أسرار الغيب التى أعلم الله - تعالى - بها رسوله - صلى
الله عليه وسلم - ، ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - :

حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن على بن زيد ، عن
يوسف بن مهران ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
لما قال فرعون : « آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل ، قال
جبريل لى : يا محمد لو أريتنى وقد أخذت حالا من حال البحر - أى طينا
أسود من طين البحر - قدسسته فى قمه مخافة أن تناله الرحمة .

ورواه الترمذى ، وابن جرير ، وابن أبى حاتم فى تفاسيرهم ، من حديث
حماد بن سلمة ، وقال الترمذى : حديث حسن .

ثم ساق ابن كثير بعد ذلك جملة من الأحاديث فى هذا المعنى (١) .

وقوله - سبحانه - : « فاليوم ننجيك بيدك لتكون لمن خلفك آية... »
تهكم به ، وتخيب لآماله ، وقطع لدابر أطماعه والمعنى : إن دعواك الإيمان الآن
مرفوضة ، لأنها جاءت فى غير وقتها ، وإننا اليوم بعد أن حل بك الموت ، نلقى
بجسمك الذى خلا عن الروح ، على مكان مرتفع من الأرض ، لتكون عبرة
وعظة للأحياء الذين يعيشون من بعدك سواء أكانوا من بنى إسرائيل أم من
غيرهم ، حتى يعرف الجميع بالمشاهدة أو الإخبار ، سوء عاقبة المكذبين ،
وأن الألوهية لا تكون إلا لله الواحد الأحد ، الفرد الصمد .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٢٧ . طبعة دار الشعب .

قال الإمام الشوكانى : قوله « فاليوم ننجيك بيدك ... » قرىء « ننجيك جالتخفيف ، والجمهور على التثقيف ... »

أى : نأقيك على نجوة من الأرض . وذلك أن بنى إسرائيل لم يصدقوا أن فرعون قد غرق ، وقالوا : هو أعظم شأننا من ذلك ، فألقاه الله على نجوة من الأرض أى مكان مرتفع من الأرض حتى شاهدوه ...

ومعنى « بيدك » : بجسدك بعد سلب الروح منه . وقيل معناه بدرعك . والدرع يسمى بدنا ، ومنه قول كعب بن مالك :

ترى الأبدان فيها مسبغات على الأبطال واليلب الحمينا

أراد بالأبدان الدروع (١) - وباليلب - بفتح الياء واللام - الدروع اليمانية كانت تتخذ من الجلود ...

وقوله . « وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ، تذييل قصد به دعوة الناس جميعا إلى التأمل والتدبر ، والاعتبار بآيات الله ، وبمظاهر قدرته .

أى : وإن كثيرا من الناس لغافلون عن آياتنا الدالة على وحدانيتنا . وقد رتنا عن إهلاك كل ظالم جبار .

قال ابن كثير : وكان هلاك فرعون يوم عاشوراء . كما قال البخارى : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا غندر ، حدثنا شعبة ، عن أبي بشر ، عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس قال : قدم النبي - صلى الله عليه وسلم - المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء فقالوا : هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون . فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه : أقيم أحق بموسى منهم فصوموه ، (٢) .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك بعض مظاهر نعمه على بنى إسرائيل بعد أنه
أهلك عدوهم فرعون فقال - تعالى - : ولقد بوأنا بنى إسرائيل موبأ صدق
ورزقناهم من الطيبات ... ،

وقوله : د بوأنا ، أى : أنزلنا وأسكننا ، من التبوء ، وهو اتخاذ المباءة أى
المنزل والمسكن .

وفى إضافة الموبأ إلى الصدق مدح له ، فقد جرت عادة العرب على أنهم
إذا مدحوا شيئاً ضافوه إلى الصدق فقالوا : رجل صدق إذا كان متحلياً
بمكارم الأخلاق .

قال الآلوسى : والمراد بهذا الموبأ - كما رواه ابن المنذر وغيره عن الضحاك - :
الشام ومصر ، فإن بنى إسرائيل الذين كانوا فى زمان موسى - عليه السلام -
وهم المرادون هنا ، ملكوا ذلك حينما ذهب إليه جمع من الفضلاء .

وأخرج أبو الشيخ وغيره عن قتادة أن المراد به الشام وبيت المقدس ،
واختاره بعضهم ، بناء على أن أولئك لم يعودوا إلى مصر بعد ذلك .

وأنت تعلم أنه ينبغى أن يراد بببنى إسرائيل على القولين ، ما يشمل ذريتهم
بناء على أنهم ما دخلوا الشام فى حياة موسى - عليه السلام - ، وإنما دخلها
أبناءؤهم - بقيادة يوشع بن نون ...

وقيل المراد به أطراف المدينة إلى جهة الشام ، وببنى إسرائيل ، الذين
كانوا على عهد نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - ، (١) .

والمعنى : ولقد أنزلنا بنى إسرائيل بعد هلاك عدوهم فرعون منزلاً صالحاً
مريضاً ، فيه الأمان والاطمئنان لهم ، وأعطيناهم فوق ذلك الكثير من ألوان
الملكولات والمشروبات الطيبات التى أحللناها لهم .

وقوله : « فما اختلفوا حتى جاءهم العلم . . . » ، توبيخ لهم على موقف الجحودى من هذه النعم التى أنعم الله بها عليهم .

أى : أنهم ما تفرقوا فى أمور دينهم ودينهم على مذاهب شتى ، إلا من به ما جاءهم العلم الحاسم لكل شبهة ، وهو ما بين أيديهم من الوحي الذى أمره الله - تعالى - أن يتلوه حق تلاوته ، وأن لا يستخدموه فى التأويلات الباطلة فالجملة الكريمة توبخهم على جعلهم العلم - الذى كان من الواجب عليهم أن يستعملوه فى الحق والخير - وسيلة للاختلاف والابتعاد عن الطريق المستقيم وقوله : « إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » تذييل قصد به الزجر عن الاختلاف واتباع الباطل

أى : إن ربك يفصل بين هؤلاء المختلفين ، فيجازى أهل الحق بما يستحقون من ثواب ، ويجازى أهل الباطل بما يستحقونه من عقاب .

وبعد هذا الحديث المتنوع عن قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وملئه ، ومع قومه بنى إسرائيل ، وجه القرآن خطابا إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - تثبيتا لقلبه ، وتسلية له عما أصابه من أذى ، فقال - تعالى - :

فَإِنْ كُنْتَ

عَنِ شَيْءٍ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَاقُرْءُونَ الْكِتَابَ مِنْ
قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾
وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَةِ اللَّهِ فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾
إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ
آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

والمراد : « بما أنزلنا إليك ، هنا : ما أوحاه الله - تعالى - إلى نبيه - صلى الله عليه وسلم - من قصص »

قال الألوسي : وخصت القصص بالذكر ، لأن الأحكام المنزلة عليه - صلى الله عليه وسلم - ناسخة لأحكامهم ، ومخالفة لها ، فلا يتصور سؤالهم عنها (١) .

والمراد بالكتاب : جنسه فيشمل التوراة والإنجيل .

والمعنى : فإن كنت - أيها الرسول الكريم - على سبيل الفرض والتقدير - في شك مما أنزانا إليك من قصص حكيم كقصّة موسى وفوح وغيرهما فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك ، وهم علماء أهل الكتاب ، فإن ما قصصناه عليك ثابت في كتبهم .

فليس المراد من هذه الآية ثبوت الشك للرسول - صلى الله عليه وسلم - وإنما المراد على سبيل الفرض والتقدير ، لا على سبيل الثبوت .

قال ابن كثير : قال قتادة بن دعامة : بلغنا أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لا أشك ولا أسأل .

وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن البصري . وهذا فيه تثبيت للأئمة ، وإعلام لهم بأن صفة نبينهم - صلى الله عليه وسلم - موجودة في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب ، كما قال - تعالى - الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل ... (٢) .

وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - في شأن عيسى - عليه السلام - : إنا أنزلنا الكتاب بالحق ، وإن كنت قلته فقد علمته ...

فعيسى - عليه السلام - يعلم علم اليقين أنه لم يقل ذلك ، وإنما يفرض قوله فرضا ، يستدل عليه بأنه لو قاله لعلمه الله - تعالى - منه .

(١) تفسير الألوسي ج ١١ ص ١٦٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٣١ .

أى : إن كنت قلته - على سبيل الفرض والتقدير - فقولى هذا لا يخفى عليك .
قال صاحب الكشف ما ملخصه : فإن قلت : كيف قال الله - تعالى -
لرسوله - صلى الله عليه وسلم - : فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك ... ؟
قلت : هو على سبيل الفرض والتشيل ، كأنه قيل : فإن وقع لك شك -
مثلا - وخيل لك الشيطان خيالا منه تقديرا ، فاسأل الذين يقرءون الكتاب ،

والمعنى : أن الله عز وجل - قدم ذكر بنى إسرائيل ، وهم قرأة الكتاب ،
ووصفهم بأن العلم قد جاءهم ، لأن أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
مكتوب عندهم فى التوراة والإنجيل ، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، فأراد
أن يؤكد علمهم بصحة القرآن ، وصحة نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - وببالغ
فى ذلك فقال : فإن وقع لك شك فرضا وتقديرا . فسل علماء أهل الكتاب .
يعنى أنهم من الإحاطة بصحة ما أنزل إليك ، بحيث يصلحون لمراجعة مثلك ،
فضلا عن غيرك .

فالفرض وصف الأحبار بالرسوخ فى العلم بصحة ما أنزل إلى رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - لا وصفه بالشك فيه ...

ويجوز أن يكون على طريق التهيج والإلهاب كقوله : فلا تكونن ظهيرا
للكافرين ... ، ولذلك قال - صلى الله عليه وسلم - عند نزوله : لا أشك
ولا أسأل بل أشهد أنه الحق .

وقيل : خوطب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمراد خطاب أمته .
ومعناه : فإن كنتم فى شك مما أنزلنا إليكم ... ، (١) .

وقوله : لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ، كلام مستأنف
مؤكد لا جتهات لإرادة الشك .

والتقدير : أقسم لقد جاء الحق الذي لا يلبس فيه من ربك لامن غيره .
فلا تكونن من الشاكين المتردين في صحة ذلك .

وقوله : ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكونن الخاسرين .
تعريض بأوائك الشاكين والمكذبين له - صلى الله عليه وسلم - من قومه .
أى : ولا تكونن من القوم الذين كذبوا بآيات الله الدالة على صدقك فيما
تبلغه عنا ، فتكون بذلك من الخاسرين الذين أضاعوا دنياهم وآخرهم .
قال الألوسى : وفائدة النهى فى الموضوعين التهيج والإلهاب نظير مامر .
والمراد بذلك الاعلام بأن الامراء والتكذيب قد بلغا فى القبح والمحذورية
إلى حيث ينبغى أن ينهى عنهما من لا يمكن أن يتصف بهما ، فكيف بمن
يمكن اتصافه بذلك ... (١) .

وقوله : وإن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية
حتى يروا العذاب الآليم ، توبخ للكافرين على إصرارهم على الكفر ،
وجحودهم للحق .

والمراد بكلمة ربك : حكمه النافذ ، وقضاؤه الذى لا يرد ، وسنته التى
لا تتغير ولا تبدل فى الهداية والاضلال .

والمراد بالآية : المعجزات والبراهين الدالة على صدق الرسول - ﷺ - .
أى : إن الذين حكم الله - تعالى - عليهم بعدم الإيمان - لأنهم استحبوا
العمى على الهدى - لا يؤمنون بالحق الذى جئت به - أيها الرسول الكريم - ،
مهما سقت لهم من معجزات وبراهين دالة على صدقك ...
ولكنهم سيؤمنون بأن ما جئت به هو الحق ، حين يرون العذاب الآليم
وقد نزل بهم من كل جانب .

وهنا سيكون إيمانهم كلاً إيمان ، لأنه جاء فى غير وقته ، وصدق الله
إذ يقول : فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا .. (١) .

(١) تفسير الألوسى ج ١١ ص ١٦٨ .

(٢) سورة غافر الآية ٨٥ .

وسيكون - اللهم كحال فرعون ، الذى عندما أدركه الفرق قال آمنت ..
وبذلك نرى الآيات الكريمة قد نبت عن الشك والامتراء فى شأن الحق
الذى جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأبلغ أسلوب ، وأقوى بيان ،
كما بيّنت سنة من سنن الله فى خلقه ، وهى أن من لا يأخذ بأسباب الهدى
لا يهتدى ، ومن لا يفتح بصيرته للنور لا يراه ، فتكون نهايته إلى الضلال ،
مهما تكن الآيات والبيّنات الدالة على طريق الحق .

ثم فتحت السورة الكريمة للمكذّبين باب الأمل والنجاة ، فذكرتهم بقوم
يونس - عليه السلام - الذين نجاوا من العذاب بسبب إيمانهم ، كاذكرتهم بإرادة الله
التامة ، وقدرته النافذة ، ودعاهم إلى الاعتبار والاعتاظ بما اشتمل عليه هذا الكون ..
استمع إلى السورة الكريمة وهى تسوق كل ذلك وغيره بأسلوبها البليغ
المؤثر فتقول :

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيبَةً ءَامَنَتْ
أَتَقَنَّفَعَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ
الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ
لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا
مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ
الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلْ أَنْظِرُوا مَا ذَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ
يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي
مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ

قال القرطبي ما ملخصه : روى فى قصة يونس - عليه السلام - عن جماعة من المفسرين ، أن قوم يونس كانوا بنيىوى من أرض الموصل - بالعراق - وكافوا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله إليهم يونس يدعوهم إلى الإسلام ، وترك ما هم عليه فأبوا ، فقيل : إنه أقام يدعوهم تسع سنين فيش من إيمانهم . فقيل له : أخبرهم أن العذاب مصحبهم إلى ثلاث ففعل . وقالوا : هو رجل لا يكذب فأرقبوه ، فإن أقام معكم وبين أظهركم فلا هليكم ، وإن ارتحل عنكم ، فهو نزول العذاب لاشك ...

فلما كان الليل تزود يونس وخرج عنهم ، فأسبحوا فلم يجدوه ، فآمنوا وتابوا ، ودعوا الله ولبسوا المسوح ، وفرقوا بين الأمهات والأولاد من الناس والبهائم ، وردوا المظالم ..

قال الزجاج : لأنهم لم يقع بهم العذاب ، وإنما رأوا العلامة التى تدل على العذاب ، ولورأوا العذاب لما نفعمهم الإيمان (١) .

وكلمة «لولا» فى قوله - سبحانه - «فلولا كانت قرية آمنت ..» تلحث والتحضيض ، فهى بمعنى هلا .

والمقصود بالقرية أهلها . وهم أقوام الأنبياء السابقين ، وهى اسم كان . وقوله «آمنت» خبرها . وقوله «فنفعها إيمانها» معطوف على «آمنت» .

والمعنى : فهلا عاد المكذبون إلى رشدهم وصوابهم ، فآمنوا بالحق الذى جاءهم به رسالهم ، فنجوا بذلك من عذاب الاستئصال الذى حل بهم ففقط .

دابرم ، كما نجاهم قوم يونس - عليه السلام - فإنهم عندما رأوا امارات العذاب الذى أنذرهم به نبىهم آمنوا وصدقوا ، فكشف الله عنهم هذا العذاب الذى كاد ينزل بهم ، ومتعمم بالحياة المقدره لهم ، إلى حين إنقضاء آجالهم فى هذه الدنيا .

قال الإمام الشوكانى : والاستثناء بقوله : « إلا قوم يونس .. » منقطع ، وهو استثناء من القرى لأن المراد أهلها .

والمعنى : فلا قرية واحدة من القرى التى أهلكتناها آمنت بإيمان معتدا به - وذلك بأن يكون خالصا لله - قبل معاينة العذاب ، ولم تؤخره كما أخره فرعون ، لكن قوم يونس لما آمنوا ، إيماننا معتدا به قبل معاينة العذاب ، أو عند أول المعاينة قبل حلوله بهم ، كشفنا عنهم عذاب الخزي ، أى الذل والهوان - .

وقيل يجوز أن يكون متصلا . والجملة فى معنى النفي . كأنه قيل : ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلا قوم يونس ... (١) .

وقال الشيخ القاسمى ما ملخصه : وما يرويه بعض المفسرين هنا من أن العذاب قدلى عليهم ، وجعل يدور على رؤسهم ... ونحو هذا ، ليس له أصل لا فى القرآن ولا فى السنة ...

وفى الآية إشارة إلى أنه لم توجد قرية آمنت بأجمعها بنبيها المرسل إليها من سائر القرى ، سوى قوم يونس .

والبقية دأبهم التكذيب ، كلهم أو أكثرهم ، كما قال - تعالى - : « وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مغفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » .

وفي الحديث الصحيح : عرض على الأنبياء ، فجعل النبي يمر ومعه الفئام من الناس - أى العدد القليل - والنبي معه الرجل ، والنبي معه الرجلان ، والنبي ليس معه أحد ، (١) .

وفي الآية الكريمة - أيضا - تسليية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من حزن بسبب إعراض قومه عن دعوته ، وفيها كذلك تعريض بأهل مكة ، وإنذار لهم من سوء عاقبة الإصرار على الكفر والجحود ، وحض لهم على أن يكونوا كقوم يونس - عليه السلام - الذين آمنوا قبل نزول العذاب فنفعهم إيمانهم .

ثم أضاف - سبحانه - إلى هذه التسليية لرسوله - صلى الله عليه وسلم - تسليية أخرى فقال : « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا . . . » ومفعول المشيئة محذوف والتقدير :

ولو شاء ربك - يا محمد - لإيمان أهل الأرض كلهم جميعا لآمنوا دون أن يتخلف منهم أحد ، ولكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك ، لأنه مخالف للحكمة التى عليها أساس التكوين والتشريع ، والإثابة والمعاقبة . فقد اقتضت حكمته - سبحانه - أن يخلق الكفر والإيمان ، وأن يحذر من الكفر ويحض على الإيمان ، ثم بعد ذلك من كفر فعليه تقع عقوبة كفره ، ومن آمن فله ثواب إيمانه .

والهمزة فى قوله - سبحانه - « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » للاستفهام الإنكارى . والفاء للتفريع .

والمراد بالناس : المصرين على كفرهم وعنادهم .
والمعنى : تلك هى مشيئتنا لو أردنا إنفاذها لنفدناها ، ولكننا لم نشأ ذلك

فهل أنت يا محمد فى وسعك أن تذكره الناس الذين لم يرد الله هدايتهم على الإيمان ؟

لا . ليس ذلك فى وسعك ولا فى وسع الخلق جميعا ، بل الذى فى وسعك هو التبليغ لما أمرناك بتبليغه .

وفى هذه الجملة الكريمة تسليمة أخرى للرسول - صلى الله عليه وسلم - ودفع لما يضيق به صدره ، من إعراض بعض الناس عن دعوته .

وقوله - سبحانه - : وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ... ، تأكيد لما اشتملت عليه الآية السابقة من قدرة نافذة لله - تعالى - أى : وما صح وما استقام لنفس من الأنفس ؛ أن تؤمن فى حال من الأحوال إلا بإذن الله ، أى : إلا بإرادته ومشيئته وتوقيته وهدايته .

وقوله : : ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ، معطوف على محذوف يدل عليه الكلام السابق دلالة الضد على الضد والرجس : يطلق على الشيء القبيح المستقذر .

والمعنى : وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ، فإذن لمن يشاء من تلك الأنفس بالإيمان : ويجعل الرجس أى الكفر وما يترتب عليه من عذاب على القوم الذين لم يستعملوا عقولهم فيما يهدى إلى الحق والخير ، بل استعملوها فيما يوصل إلى الأباطيل والشرور .

ولما كان التأمل فى ملكوت السموات والأرض ، بعين على التكبير السليم ، وعلى استعمال العقل فيما يهدى إلى الحق والخير ، أمر الله - تعالى - الناس بالنظر والاعتبار فقال - سبحانه - : : قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ... ،

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لقومك : انظروا وتأملوا وتفكروا

فما اشتملت عليه السموات من شمس وأفمار ، وكواكب ونجوم ،
وسحاب وأفكار . . .

وفما اشتملت عليه الأرض من زروع وأنهار ، ومن جبال وأشجار ،
ومن حيوانات ودواب متنوعة .

انظروا إلى كل ذلك وتفكروا ، فإن هذا التفكير يهدي أصحاب العقول
السليمة إلى أن لهذا الكون إلها واحدا عليما قديرا ، هو وحده المستحق
للعيادة والطاعة .

وقوله : وما تخفى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ، توبيخ للغافلين
عن النظر السليم الذي يؤدي إلى الهداية .

ودما ، نافية . والمراد بالآيات : ما أشار إليه - سبحانه - قبل ذلك
بقوله : وماذا في السموات والأرض ، والنذر : جمع نذير . وهو من يخبر
غيره بأمر مخوف حتى يحذره .

والمعنى : انظروا وتفكروا واعبروا بما في السموات والأرض من آيات
بينات دالة على وحدانية الخالق وقدرته ...

ومع ذلك فإن الآيات مهما اتضحت ، والنذر مهما تعددت ، لا تجدى شيئا ،
بالنسبة لمن تركوا الإيمان ، وأصروا على الجحود والعناد :

ويجوز أن تكون دما ، للاستفهام الإنكارى ، فيكون المعنى : وأى شيء
تجدى الآيات السماوية والأرضية ، والنذر بحججها وبراهينها ، أمام قوم
جاحدين معاندين ، قد استحبوا الكفر على الإيمان ؟

ثم ساق - سبحانه - للمكذبين برسوله - صلى الله عليه وسلم - تهديدا
يخلع قلوبهم فقال : « فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ؟ قل
فانتظروا إلى معكم من المنتظرين ، » .

قال القرطبى : الأيام هنا بمعنى الوقائع ، يقال : فلان عالم بأيام العرب أى بوقائعهم . قال قتادة : يعنى وقائع الله فى قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم . والعرب تسمى العذاب أياما والنعم أياما ، كقوله - تعالى - وذكرهم بأيام الله . وكل ما مضى لك من خير أو شر فهو أيام ، (١) .

والمعنى : إذا كان الأمر كما قصصنا عليك من إنابتنا للمؤمنين ، وجعل الرجس على الذين لا يعقلون ، فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لدعوتك ، إلا العذاب الذى نزل بالمكذابين لدعوة الرسل من قبلك ؟ فلا استفهام للتهميم والتفريع . وقوله : قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين ، أمر من الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - بأن يستمر فى تهديدهم ووعيدهم .

أى : قل - يا محمد - لهؤلاء الجاحدين للحق الذى جئت به : إذا فانتظروا للعذاب الذى نزل بالسابقين من أمثالكم ، إني معكم من المنتظرين لوعدي لى ، ولوعيده لكم .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة ببيان سنة من سننه التى لا تتخلف ولا تبدل فقال : ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا ، كذلك حقا علينا ننجي المؤمنين .

والجملۃ الكريمة عطف على محذوف . والتقدير : تلك سنمتنا فى خلقنا ، نهلك الأمم المكذبة ، ثم ننجي رسلنا ، الذين أرسلناهم لإخراج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، وننجي - أيضا - الذين آمنوا برسلنا وصدقوهم وقوله ، كذلك حقا علينا ننجي المؤمنين ، الكاف فى ذلك ، بمعنى مثل وهى صفة لمصدر محذوف ، واسم الإشارة يعود على الإنجاء الذى تكفل الله به للرسل السابقين ولمن آمن بهم ولفظ (حقا) منصوب بفعل مقدر أى : حق ذلك علينا حقا أى : مثل ذلك الإنجاء الذى تكفلنا به لرسلنا ولمن آمن

هم ، فنج المؤمنين بك - أيها الرسول الكريم - ، ونعذب المصيرين على تكذيبك ، وهذا وعد أخذناه على ذاتنا فضلا منا وكرما .

(سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنةنا تحويلا) (١) وبذلك ترى الآيات الكريمة قد حضرت الضالين على الإقتداء بقوم يونس - عليه السلام - لكي ينجو من العذاب ، وذكرتهم بنفاذ إرادة الله وقدرته ، ودعوتهم إلى التفكر في ملكوت السموات والأرض ، وأخبرتهم بأن سنة الله ماضية في إنجاء المؤمنين ، وفي إهلاك المكذبين .

وبعد هذا الحديث المتنوع الذي زخر به سورة يونس - عليه السلام - عن وحدانية الله وقدرته ، وعن صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم ، وعن النفس الإنسانية وأحوالها ، وعن القيامة وأهوالها . . .

بعد كل ذلك وجهت في ختامها نداء إلى الناس أمرتهم فيها بإخلاص العبادة لله - تعالى - وبالا اعتماد عليه وحده ، وبتركية نفوسهم . . . استمع إلى السورة الكريمة في ختامها وهي تقول :

قُلْ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ
مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ
الَّذِي يَتَوَفَّكُمُ وَأُمِرْتُ أَن أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨١﴾ وَأَن أَقِمَّ
وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَدْعُ مِن
دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِن
الظَّالِمِينَ ﴿١٨٣﴾

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ
يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ
رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدَى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ
عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ
وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

والمعنى : (قل) أيها الرسول الكريم ، لجميع من ارتاب في دينك .
(يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني) الذي جئتكم به من عند الله
- تعالى - ، وترغبون في تحويلي عنه . فاعلموا أنى برىء من شككم
ومن أديانكم التى أنتم عليها .
وما دام الأمر كذلك ، فأنا (لا أعبد الذين تعبدون من دون الله) من
آلهة باطلة فى حال من الأحوال .
(ولاكن أعبد الله) تعالى - الذى خلقكم (والذى يتوفاكم) عند انقضاء
أجالاتكم ، وبعاقبكم على كفركم .
وقوله : وأمرت أن أكون من المؤمنين ، تأكيد لإخلاص عبادته
- صلى الله عليه وسلم - لله وحده .
أى : وأمرت من قبل خالقى - عز وجل - بأن أكون من المؤمنين
بأنه لا معبود بحق سواه .

وأثر الخطاب بانتم الجنس ، مع تصديره بحرف التنبيه . تعميما
للخطاب ، وإظهارا لكمال العناية بشأن المبلغ إليهم .
وعبر عن شككم ، وإيمانكم ، بآية الله تعالى : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدَى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾

في صحة هذا الدين بدليل عدم إيمانهم به ، تنزيلا للمحقق منزله منزلة المشكوك فيه ، وتنزيها لساحة هذا الدين عن أن يتحقق الشك فيه من أى أحد ، وتوبيخا لهم على وضعهم الأمور في غير مواضعها .

وقدم - سبحانه - ترك عبادة الغير على عبادته - عز وجل - ، لإيداننا بمخالفتهم من أول الأمر ، ولتقديم التخلية على التحلية .

وتخصيص التوفى بالذكر ، للتهديد والفرهيب ، أى : ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم فيفعل بكم ما يفعل من الذاب الشديد ، ولأنه أشد الأحوال مهابة في القلوب .

وقوله : « وأن أقم وجهك للدين حنيفا . . . » ، معطوف على قوله : « أن أكون من المؤمنين » .

و « حنيفا » حال من الدين أو من الوجه . والحنيف : هو المائل عن كل دين من الأديان إلى دين الإسلام .

وخص الوجه بالذكر ؛ لأنه أشرف الأعضاء .

والمعنى : إن الله - سبحانه - أمره بالاستقامة في الدين ، والثبات عليه ، وعدم العزول عنه بحال من الأحوال .

قال الألوسى : إقامة الوجه للدين ، كناية عن توجية النفس بالكلية إلى عبادته - تعالى - ، والإعراض عما سواه ؛ فإن من أراد أن ينظر إلى شيء نظر استقصاء ، يقيم وجهه في مقابلته ، بحيث لا يلتفت يمينا ولا شمالا ، إذلو التفت بطلت المقابلة ، فلذا كنى به عن صرف العمل بالكلية إلى الدين . فالمراد بالوجه الذات

أى : اصرف ذاتك وكنيتك للدين . . . » (١) .

وقوله - تعالى - : « ولا تكونون من المشركين ، تأكيد للأمر بإخلاص العبادة لله - تعالى - وحده . وهو معطوف على « أقم » .

أى : استقم على ما أنت عليه من إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده واثبت على ذلك ، ولا تكونون من الذين أشركوا مع الله آلهة أخرى .

ثم أضاف - سبحانه - إلى ذلك تأكيذا آخر فقال : « ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك . . . »

أى : ولا تدع من دون الله فى أى وقت من الأوقات مالا ينفعك ، إذا دعوته لدفع مكروه أو جلب محبوب « ولا يضرك » إذا تركته وأهملته .

« فإن فعلت » شيئا مما نهيناك عنه « فإنك إذا » تكون « من الظالمين » الذين ظلموا أنفسهم بإيرادها مورد الممالك ، لإشراكها مع الله - تعالى - آلهة أخرى .

ثم بين - سبحانه - أنه وحده هو الضار والنافع فقال : « وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو » ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم .

المس : أعم من اللمس فى الاستعمال . يقال : مسه سوء والكبر والعذاب والتعب أى : أصابه ذلك ونزل به .

والضر : اسم للألم والحزن وما يفضى إليهما أو إلى أحدهما ، كما أن النفع اسم للذة والسرور وما يفضى إليهما أو إلى أحدهما .

والخير : اسم لكل ما كان فيه منفعة أو مصلحة حاضرة أو مستقبلية .

والمعنى : « وإن يمسسك الله بضر » كمرض وتعب وحزن « فلا كاشف له » أى : لهذا الضر « إلا هو » - سبحانه - .

« وإن يردك بخير » كصحة وغم وقوة « فلا راد لفضله » أى : فلا يستطيع أحد أن . . . وهذا الخ .

وعبر - سبحانه - بالفضل مكان الخير للإرشاد إلى تفضله على عباده بأكثر مما يستحقون من خيرات .

وقوله : يصيب به من يشاء من عباده ، أى : يصيب بذلك الفضل والخير من يشاء ، لإصابته من عباده ، .

وهو الغفور الرحيم ، أى : وهو الكثير المغفرة والرحمة لمن تاب إليه ، وتوكل عليه ، وأخلص له العبادة .

وفى معنى هذه الآية جاء قوله - تعالى - : ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ، (١) .

وقال ابن كثير : وروى ابن عساكر عن أنس قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (اطلبوا الخير دهركم كله ، وتعرضوا لفتحات ربكم ، فإن لله فتحات من رحمته ، يصيب بها من يشاء من عباده ، واسألوه أن يسقر عوراتكم ، ويؤمن روعاتكم) (٢) .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بندا آخر ، أمر رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يوجهه للناس فقال : قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ،

أى : قل - أيها الرسول الكريم - مخاطبا جميع الناس ، سواء منهم من سمع نداك أو سبيلغه هذا النداء من بعدك قل لهم جميعا : قد جاءكم الحق ، المتمثل فى كتاب الله وفى سنتى من ربكم ، وليس من أحد سواه .

د فن اهتدى ، إلى هذا الحق ، وعمل بمقتضاه ، فإنما يهتدى لنفسه ، أى : فإنما تكون منفعة هدايته لنفسه لا لغيره .

« ومن ضل ، عن هذا الحق وأعرض عنه ، فإنما يضل عليها ، أى : فإنما يكون وبال ضلاله على نفسه .

« وما أنا عليكم بوكيل ، أى : بحفيظ يحفظ أموركم ، وإنما أنا بشير ونذير ، والله وحده هو الذى يتولى بحاسببتكم على أعمالكم .

ثم أمره - سبحانه - باتباع ما أوحاه إليه فقال : « واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله ، وهو خير الحاكمين ، .

أى : واتبع - أيها الرسول الكريم - فى جميع شئونك ما يوحى إليك ، من ربك من تشريعات حكيمة ، وآداب قويمه ...

« واصبر ، على مشاق الدعوة وإن كاليها ...

« حتى يحكم الله ، بينك وبين قومك » وهو خير الحاكمين ، لأنه هو المعلم بالظواهر والبواطن ، وهو الذى لا معقب لحكمه .

وبعد : فهذه هى سورة يونس - عليه السلام - رأينا ونحن نفسرها كيف أقامت الأدلة على وحدانية الله - عز وجل - وعلى كمال قدرته ، وشمول علمه ، ونفاذ إرادته ، وسعة رحمته ، وسمو عزته . .

وكيف أنها أقامت الأدلة - أيضا - على صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن هذا القرآن من عنده - سبحانه - .

وكيف أنها سافت من الأدلة على أن يوم القيامة حق ، وعلى أحوال الناس فيه ، ما يرقق القلوب القاسية ، ويبعث فى النفوس الخشية وحسن الاستعداد لهذا اليوم الهائل الشديد وكيف أنها سافت جانباً من أحوال بعض الأنبياء مع أممهم ، وقررت سنة من سنن الله التى لا تتخلف ، وهى نجاة رسل الله والمؤمنين بهم ، وجعل الرجس على الذين لا يعقلون .

قويا مؤثرا ، من شأنه أن يحملهم على التحلى بالأخلاق الكريمة ، والتخلى عن
الأخلاق الذميمة .

نسأل الله - تعالى - أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا ، وأنس
نفوسنا .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين

المدينة المنورة السبت ٧ من المحرم سنة ١٤٠١ هـ

الموافق ١٥ / ١١ / ١٩٨٠ م

« فهرس تفسير سورة يونس - عليه السلام - »

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقدمة والتمهيد	١٤
١	الزئلك آيات الـكتاب الـحكيم	١٥
٢	أكان للناس عجباً	١٦
٣	إن ربكم الله الذى خلق	٢٥
٤	إليه مرجعكم جميعاً	٣٠
٥	هو الذى جعل الشمس ضياء	٣٢
٦	إن فى اختلاف الليل والنهار	٣٥
٧	إن الذين لا يرجون لقاءنا	٣٦
٨	أولئك مأواهم النار	٣٨
٩	إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات	٣٩
١٠	دعواهم فيها سبجانك	٤٠
١١	ولو يعجل الله للناس الشر	٤١
١٢	وإذا مس الإنسان	٤٥
١٣	واقعد أهلكتنا القرون	٤٨
١٤	ثم جعلناكم خلائف	٤٩
١٥	وإذا تولى عليهم	٥٠
١٦	قل لو شاء الله	٥٢
١٧	فن أظلم ممن اقترى	٥٤
١٨	ويعبدون من دون الله	٥٥
١٩	وما كان الناس إلا أمة	٥٧
٢٠	ويقولون لو لا أنزل	٥٩

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
٢١	وإذا أذقنا الناس	٦١
٢٢	هو الذي يسيركم في البر والبحر	٦٤
٢٣	فلما أنجاهم إذا هم يبنون	٦٦
٢٤	إنما مثل الحياة الدنيا كماء	٧٠
٢٥	والله يدعو إلى دار السلام	٧٤
٢٦	للذين أحسنوا الحسنى	٧٥
٢٧	والذين كسبوا السيئات	٧٧
٢٨	ويوم نحشرهم جميعا	٧٨
٢٩	فكفى بالله شهيدا	٨٠
٣٠	هنالك تبلو كل نفس	٨١
٣١	قل من يرزقكم من السماء	٨١
٣٢	فذاكم الله ربكم الحق	٨٣
٣٣	كذلك حقت كلمة ربك	٨٤
٣٤	قل هل من شركائكم من يبدأ	٨٥
٣٥	قل هل من شركائكم من يهدي	٨٧
٣٦	وما يتبع أكثرهم إلا ظنا	٨٨
٣٧	وما كان هذا القرآن	٩٠
٣٨	أم يقولون افتراه	٩٢
٣٩	بل كذبوا بما لم يحيطوا	٩٥
٤٠	ومنهم من يؤمن به	٩٧
٤١	وإن كذبوك فقل لي	٩٧
٤٢	ومنهم من يستمعون إليك	٩٧
٤٣	ومنهم من ينظر إليك	٩٨
٤٤	إن الله لا يظلم الناس	٩٩

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
٤٥	ويوم يحشرهم	١٠٠
٤٦	ولما فرينك بعض	١٠١
٤٧	ولكل أمه رسول	١٠٤
٤٨	ويقولون متى هذا الوعد	١٠٥
٤٩	قل لا أملك لنفس	١٠٥
٥٠	قل أريتكم إن أناكم	١٠٦
٥١	أثم إذا ما وقع آمنتم به	١٠٨
٥٢	ثم قيل للذين ظلموا	١٠٩
٥٣	ويستنبئونك أحق هو	١١٠
٥٤	ولو أن لكل نفس ظلمت	١١١
٥٥	ألا إن لله ما في السموات والأرض	١١٢
٥٦	هو يحيى ويميت	١١٣
٥٧	يا أيها الناس قد جاءكم	١١٤
٥٨	قل بفضل الله وبرحمته	١١٦
٥٩	قل أرايتكم ما أنزل الله	١١٧
٦٠	وما ظن الذين يفترون	١١٨
٦١	وما تكون في شأن وما قتلتوا	١٢٠
٦٢	ألا إن أولياء الله	١٢٣
٦٣	الذين آمنوا وكانوا	١٢٤
٦٤	لهم البشرى في الحياة	١٢٧
٦٥	ولا يحزنك قولهم	١٢٨
٦٦	ألا إن لله من في السموات	١٢٩
٦٧		١٣٠

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
٦٨	قالوا اتخذ الله ولدا	١٣٠
٦٩	قل إن الذين يفترون	١٣١
٧٠	متاع في الدنيا ثم إلينا	١٣٢
٧١	واقبل عليهم نبأ نوح	١٣٣
٧٢	فإن قوليتهم فما سالتكم	١٣٩
٧٣	فكذبوه فنجيناه ومن معه	١٤٠
٧٤	ثم بعثنا من بعده رسلا	١٤٠
٧٥	ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون	١٤٣
٧٦	فلما جاءهم الحق من عندنا	١٤٥
٧٧	قال موسى أتقولون	١٤٦
٧٨	قالوا أجيئتنا لتلقئنا	١٤٧
٧٩	وقال فرعون أتؤنى	١٥٠
٨٠	فلما جاء السحرة	١٥١
٨١	فلما ألحقوا قال موسى	١٥١
٨٢	وبحق الله الحق بكلماته	١٥١
٨٣	فما آمن لموسى إلا ذرية	١٥٢
٨٤	وقال موسى يا أقرم	١٥٥
٨٥	فقالوا على الله توكلنا	١٥٥
٨٦	ونجنا برحمتك من القوم	١٥٦
٨٧	وأوحينا إلى موسى وأخيه	١٥٦
٨٨	وقال موسى ربنا	١٥٨
٨٩	قال قد أجيبك دعوتكما	١٦٣
٩٠	وجاوزنا ببني إسرائيل	١٦٤

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
٩١	الآن وقد عصيت قبل	١٦٦
٩٢	فاليوم ننجيك بيدك	١٦٧
٩٣	ولقد بوأنا بنى إسرائيل	١٦٨
٩٤	فإن كنت في شك	١٦٩
٩٥	ولا تكونن من الذين كذبوا	١٧١
٩٦	إن الذين حقت عليهم	١٧٢
٩٧	ولو جاءتهم كل آية	١٧٣
٩٨	فلولا كانت قرية آمنت	١٧٣
٩٩	ولو شاء ربك لآمن	١٧٦
١٠٠	وما كان لنفس أن تؤمن	١٧٧
١٠١	قل انظروا ماذا في السموات	١٧٨
١٠٢	فهم ينتظرون إلا مثل	١٧٩
١٠٣	ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا	١٧٩
١٠٤	قل يأيها الناس إن كنتم	١٨٠
١٠٥	وأن أقم وجهك للدين	١٨٢
١٠٦	ولا تدع من دون الله	١٨٣
١٠٧	وإن يحسبك الله بضراً	١٨٤
١٠٨	قل يأيها الناس قد جاءكم	١٨٤
١٠٩	واتبع ما يوحى إليك ولا صبر	١٨٥

رقم الاجازة ٤١٢٤ / ١٩٨٣